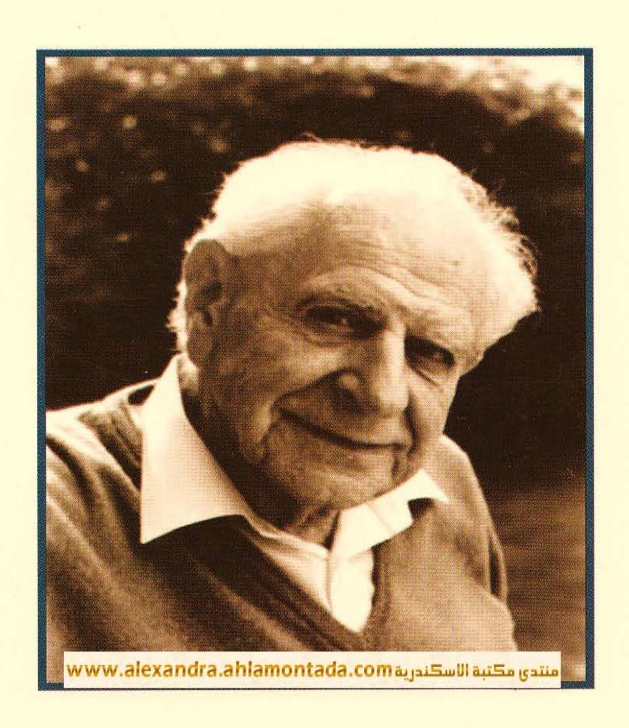
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

منشورات الاختلاف

درس القرن العشرين



كارل بوبر

ترجمة:
الزواوي بغورة
لخضر مذبوح

درس
القرن العشرين

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي
LA LEÇON DE CE SIÈCLE
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
ANATOLIA
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

درس القرن العشرين

كارل بوبر

ترجمة وتقديم وتعليق

د. الزواوي بغوره

بالاشتراك مع د. لخضر مذبوح



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-419-3

منشورات الاختلاف

149 شارع حسيبة بن بوعلي

الجزائر العاصمة - الجزائر

e - mail: editions.elikhtilef@gmail.com



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

مقدمة

كارل بوبر في السياقين العربي والغربي(*)

لا جدال في ان الفلسفة عالمية وإنسانية بطبيعتها وخلاصة للعقل والجهد البشريين، ليس لها من سلطة غير سلطة العقل والبرهان، فكل ما هو عقلي هو فلسفي وإنساني وعالمي ومحلي في الوقت نفسه، لان الفلسفة تقول بالمظهر والماهية بالشكل والمحتوى بالعقل وتمظهراته. ولما كانت كذلك، فإنها لا تؤمن بالحدود والحواجز والخصوصيات، لأنها بحث في الحقيقة ونشدان للمعنى وتأسيس للتواصل والحوار واللقاء بين الحضارات والثقافات، مهما اختلفت الأديان والعقائد والأعراف والنظم والاتجاهات والنحل والملل والألسن واللغات.

من هنا سعت الفلسفة قديما وحديثا للتغلب على عقبة اللغة من خلال الترجمة، وكانت بذلك تجسيدا لنزعة إنسانية مبكرة.، ولقد استعان فلاسفتنا القدامى، على مترجمين وشراح، قصد معرفة النصوص الفلسفية، وأصناف المناهج والطرق المؤدية الى الحقيقة. من هذا المنطلق، عمدنا إلى ترجمة كتاب كارل بوبر: درس القرن العشرين، الذي يعد بحق خلاصة لفكره السياسي والأخلاقي. ويتكون هذا الكتاب، من حوار مطول ومقالتين متصلتين بموضوع الحوار، تعالج الأولى مسالة الديمقراطية، وتبين الثانية مسؤولية ودور المثقف.

(*) بقلم د. الزواوي بغوره.

ومـــن دون شك، فان نهاية القرن العشرين قد حمل معه الكثير من الأحـــداث والقـــضايا، لعل أهمها نهاية الاستعمار وظهور الأمم الجديدة علـــى مسرح التاريخ وقيام حربين عالميتين وسقوط اكبر إمبراطورية في العـــصر الحديث، في ظرف وزمن قياسي لم تشهده البشرية من قبل، مع ما تبعه من تحولات اقتصادية واجتماعية، بالإضافة الى التطورات المذهلة في الصناعة والتكنولوجية والعلم والمعرفة البشرية على العموم.

ولعل الأهم من هذا كله، ليس تحليل ما جرى وما حدث ولكن الوقوف على الآفاق ومحاولة استشراف المستقبل، من خلال التجربة الماضية والبوادر القائمة في الحاضر. وهو الأمر الذي دفعنا إلى ترجمة هـــذا الكتاب: درس القرن العشرين، للفيلسوف المعاصر كارل بوبر(*)، الـــذي كان سباقا إلى عديد الأفكار التي أكدها الواقع وهو ما يزال على قيد الحياة.

- في السياق العربي:

ولعلـــه مـــن باب أولى، ان نسجل نقطة تاريخية تضعنا في سياق

(*) ولـــد الفيلـــسوف كـــارل بوبر بفينا سنة 1902، من أبوين ينحدران من أصول يهـــودية، اعتـــنقا المسيحية البروتستنتية اللوثرية. في سنة 1919 انخرط في جمعية مدرسة الطلبة الاشتراكيين الشيوعيين، لكنه غادرها بعد شهور قليلة. نال شهادة الدكـــتوراه سنة 1928 باشراف كارل بوهلر. في سنة 1934 نشر كتابه الرئيسي الـــذي حقق له شهرة كبيرة وهو: منطق الكشف العلمي. وفي سنة 1937 غادر النمـــسا باتجـــاه نيوزلندا وذلك تحت ضغط النازية. وفي سنة 1944 نشر كتابه الـــسياسي الهام: المجتمع المفتوح وأعداؤه. عين سنة 1947 أستاذا للمنطق ومناهج العلـــم في كلية لندن للاقتصاد. ومنحته ملكة بريطانيا سنة 1965 لقب "السير". نشر سنة 1972 كتابه "المعرفة الموضوعية". وظهرت الطبعة الأولى لأجزاء ضميمة منطق الكشف العلمي سنة 1982، ومنها: الواقعية وهدف العلم، الكون المفتوح: دفـــاع عن اللاحتمية، ونظرية الكوانتا والاختلاف في الفيزياء. نشر سنة 1993، درس هذا القرن، او درس القرن العشرين، وتوفي في 17سبتمبر 1994.

الفكـــر العربي المعاصر، وهي انه على الرغم من انتشار التيار الوضعي في الفكـــر العـــربي المعاصر وخاصة ما قدمه الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمـــود، إلا أن فلسفة كارل بوبر لم تعرف انتشارا كافيا، ولعل السبب في ذلـــك انه كان فيلسوفا ناقدا للوضعية المنطقية، ولانه لم يتوقف عند التحلـــيلات المنطقـــية للعلـــم، بـــل تعدى ذلك الى المسائل التاريخية والاجتماعـــية والـــسياسية بـــشكل خاص. وربما نتيجة لمواقفه وأرائه الـــسياسية وبخاصـــة نقـــده للماركسية على وجه الخصوص، لم تنتشر افكـــاره، خاصـــة إذا عرفنا أن الماركسية هي من التيارات التي عرفت انتشارا واسعا في العالم العربي وخاصة في الخمسينيات والستينيات وحتى الـــسبعينيات، وهـــي الفتـــرة التي نشر فيها كارل بوبر آراؤه السياسية والتاريخية وخاصة كتابيه" المجتمع المفتوح وأعداؤه" و"بؤس التاريخانية".

صـــحيح ان هذا الكتاب الأخير قد تمت ترجمته الى العربية في نهايـــة الخمسينات من القرن العشرين، وتحديدا في سنة 1959، ولكنه بقـــي في طي النسيان، وقد يكون مصير هذه الترجمة هو الذي حثنا على ترجمة هذه الحوارات والمقالات السياسية، فالمتتبع للتيار الوضعي الـــذي مثله المفكر الكبير الدكتور زكي نجيب محمود ومجموعة كبيرة من تلامذته، يرى ان هذا المفكر لم يلتفت إلى أهمية كارل بوبر والى أهمية نظرياته السياسية ونقده التاريخي للماركسية، رغم انه قد حاول تقـــديم بعـــض الملاحظات حول الماركسية من دون ان يستفيد من انتقادات بوبر في هذا المجال[1].

وقـــد يتـــساءل القارئ عن عدم اهتمام الدكتور زكي نجيب محمود بالقراءات النقدية للوضعية وبخاصة تلك القراءات التي تمت من

(1) انظـــر علـــى سبيل المثال: في حياتنا العقلية، دار الشروق، 1981، الفصل الخاص بـــ: الماركسية منهجا.

قبل ما بعد الوضعية، ويتساءل اكثر عن قدرة هذا المفكر العربي على النقد الذاتي عندما تعلق الأمر بمشاكل الفكر العربي مثلما يظهر ذلك جليا في كتابيه "تجديد الفكر العربي" و"المعقول واللامعقول في التراث العـــربي" وبقائه ضمن النظرة الوضعية المنطقية على مستوى النظرية الفلسفية، وانه لمن المهم طرح مسالة حدود النقد الذاتي الذي مارسه مفكـــر من وزن زكي نجيب محمود، وان يسال ان كان ذلك النقد عملـــية معـــرفية ام محاولة للتكيف والتلاؤم والاستجابة لمستجدات ظرفية او مرحلية، خاصة اذا ما تتبعنا المسار النقدي لهذا المفكر الذي أغـــنى المكتـــبة الفلـــسفية العربية وادخل طريقة جديدة في التفكير الفلسفي العربي!

إنـــنا بطـــرحنا لهذه الأسئلة لا نرغب في متابعة المسار الفكري الذي اتخذته الوضعية وما بعد الوضعية في العالم العربي، بقدر ما نريد ان نتـــساءل عن مدى معرفتنا بالثقافة الغربية ومدى قدرتنا على تمثل الفكـــر الغربي الذي يشكل إحدى المرجعيات الأساسية للفكر العربي المعاصر(1). ولماذا نجد – وتقريبا في كل الحالات وفي كل الاتجاهات – انتقائـــية في الاختـــيار وثبات على المعطيات الأولية وتوقف على مـــتابعة الـــتجديد الذي يحصل في الفكر الغربي، ولماذا الفكر العربي المعاصر والمفكر العربي المعاصر يتوقف عن متابعة التطورات والتغيرات والـــتحولات مـــا أن يعلن انتماؤه ويشكل قناعاته الأولية، ولماذا لا يعمـــل علـــى تقـــديم فرضيات في البحث وأطروحات قابلة للنقاش والتطوير والتحسين،؟ ان هذه الأسئلة هي التي تهمنا أكثر من متابعة المسار الفكري للوضعية وما بعد الوضعية في الفكر العربي.

---

(1) الـــزواوي بغوره، ميشيل فوكو في الفكر العربي المعاصر، دار الطليعة، بيروت – لبنان، 2001.

وفي هـــذا السياق فإننا نلاحظ، وبناء على ما استطعنا الاطلاع عليه، أن أراء وأفكار كارل بوبر السياسية لم تعرف انتشارا ودراسة وبحـــثا بالـــرغم من أن أفكاره العلمية والمنطقية والمنهجية قد عرفت طـــريقها الى المكتـــبة العـــربية ســـواء عن طريق الترجمة او البحث الأكاديمي[1]. فهل كان ذلك اختيارا ام انتقائية، ام انها استجابة ناتجة عن ظروف وضغوط سياسية واجتماعية واقتصادية؟ فكيف نفهم، انه في الـــوقت الذي بقي فيه فكر بوبر السياسي محدود التداول في أوربا وخاصة في فرنسا وايطاليا[2]، كان الأمر كذلك في الوطن العربي؟ ألا

---

(1) المقصود بتلك الأعمال، الترجمات والدراسات الآتية:

- كـــارل بوبـــر، عقـــم المذهب التاريخي، ترجمة د. عبد الحميد صبرة، منشاة المعـــارف، الإسكندرية، 1959. اعيد نشره بعنوان: بؤس الإيديولوجية، نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، دار الساقي، بيروت، لبنان، 1992.
- كارل بوبر، منطق الكشف العلمي، ترجمة د. ماهر عبد القادر محمد على، دار المعـــرفة الجامعـــية، 1987. ملاحظة: ترجم الكاتب، الفصل الاول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس. أي الجزء الاول من الكتاب الذي يتكون مـــن مـــنطق الكشف العلمي وضميمة منطق الكشف العلمي الذي يتكون بـــدوره من ثلاثة اجزاء هي: المذهب الواقعي وهدف العلم، العالم المفتوح، ونظرية الكوانتا. ولقد تم مؤخرا (2006) ترجمة كتاب منطق الكشف العلمي من قبل محمد البغدادي وصدر عن المنظمة العربية للترجمة.
- كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل، احمد مستجير، سلسة الف كتاب، 1997.
- كـــارل بوبـــر، اسطورة الاطار، ترجمة يمنى طريف الخولي، عالم المعرفة 292، الكويت 2003.

اما الدراسات فهي:

- يمنى طريف الخولي، فلسفة كارل بوبر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1989.
- محمد محمد قاسم، نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، 1986.
- كامل محمد عويطة، كارل بوبر فيلسوف العقلانية النقدية، دار الكتاب اللبناني، 1995. (طـــبعا ليست قائمة نهائية لأعمال الفيلسوف او الدراسات المنجزة حوله، وذلك نظرا لغياب بنك للمعلومات العربية في هذا المجال).

(2) نـــشر كتاب "المجتمع المفتوح وأعداؤه" سنة 1945، ولم تظهر طبعته الفرنسية إلا سنة 1979.

يعـــود الأمر إلى أن الأفكار التاريخانية التي كانت مهيمنة على الضفة الشمالية للبحر المتوسط في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، هي نفس الأفكار المهيمنة في العالم العربي.

قـــد يكـــون هذا احد الأسباب التي تبين وتوضح غياب النص الـــسياسي لكارل بوبر وخاصة كتابه "المجتمع المفتوح وأعداؤه[1]"، الـــذي تـــرجم جزأه الأول ونتمنى الاطلاع على الجزء الثاني، كما تـــرجمت بعـــض مقالاتـــه السياسية، ونتمنى ان تنجز حول فلسفته السياسية دراسات وبحوث.

- بوبر في السياق الغربي:

ان الـــذي دفعنا إلى ترجمة هذا الكتاب هو بلا شك حجم القضايا الـــتي طـــرحها بوبر ووجهة نظره في معالجتها، وهي قضايا على درجة كـــبيرة مـــن الأهمية وبخاصة ما تعلق بالعنف ودولة القانون والديمقراطية والأقلـــيات...الخ. لقد تم طرح هذه القضايا الأساسية من زاوية السيرة الذاتـــية، لـــذلك فهي بقدر ما تعكس اهتمام الذات ومشاكلها، فإنها تعكس في الوقت نفسه تفاعل الذات مع واقعها وتاريخها وأكثر من هذا تجـــاوز الـــذات لشرطها الوجودي والمعرفي، وهو ما مكنها من الإبداع والاكتشاف رغم كل ملابسات الواقع ومعوقاته وتعقيداته. وهكذا فان البحث عن الحقيقة والصدق في البحث عنها والإيمان بها والاقتناع بها والتأكد الدائم منها، يؤدي بالضرورة إلى نتائج صحيحة، وما ينطبق علـــى بوبـــر وعلى مساره العلمي والسياسي معا، ذلك المسار الذي تلاحـــم فـــيه النضال السياسي بالبحث العلمي وإرادة الكشف على الحقيقة مع أخلاقيات علمية وفلسفية رفيعة.

---

(1) ترجم مؤخرا الجزء الأول من الكتاب من قبل السيد نفادي.

لقـــد كان بوبر خصما كبيرا لماركس والشيوعية، ولكل الذين يـــزعمون تأييد مشروع سياسي على أساس معرفة قوانين الصيرورة التاريخـــية. إنـــه المنظر للمجتمع المفتوح، وبالنسبة له، فان أحداث 1989 و1991، حققت صحة انتقاداته الكبيرة للماركسية...لقد بدأ صياغتها في سن السابعة عشرة، بعد أن فتنته الإيديولوجية الشيوعية لفتـــرة قـــصيرة، خـــصوصا مـــن خلال النـــزعة السلمية للثوريين البلاشفة، وأوقعته في فخها "فخ الفأر" "piége à rat"، كما قال(1).

وعـــندما ســـأله المحاور الايطالي، عن كيفية صياغته مبكرا لقناعات واضحة جدا، حول الخطأ الملازم للنسق الماركسي، وما هـــو الموقف الذي تبناه تجاه الناس، وخصوصا المفكرين الذين هم على قناعة بالنظرية الماركسية، وكيف انه لم ينجر إلى قدرية معينة او إلى نـــوع مـــن الكبت. خلص المحاور الى فكرة مؤداها: انه لم ينتظر، على ضفة النهر، حتى تمر أمامه جثث أعدائه. لا شيء من هـــذه الصورة ينطبق على كارل بوبر، لا الجثث لأنه يتخذ مبدأ "اللاعـــنف" كأســـاس مـــن أســـس الحضارة، ولا الأعداء، لأن التقـــسيمات الثنائية للتاريخ والسياسة إلى معسكرين عدوين هي واحدة من المآخذ التي يؤاخذ بها الماركسية. ولا النهر، لأنه بالنسبة لبوبر، تمثيل التاريخ بمجرى مائي، نعرف منبعه ومصبه، كان سببا لعدد كبير من الجرائم "إن الوقت الحاضر هو الوقت الذي ينتهي فيه التاريخ، ونحن لسنا قادرين على رؤية التاريخ، باعتقادنا أن لنا القـــدرة علـــى التنبؤ بتياره، ولا نستطيع كذلك، أن نقول: "إنني عرفت دائما أن النهر سيمر من هنا".

---

(1) K. Popper, la quête inachevée, traduction française de Renée Bouvéresse, Paris, Calmant Lévy, 1981.

وفكـــرة المجتمع تتعلق دائما بمستقبل مفتوح. لا شك اننا نتعلم من الماضـــي، لكـــن لاشـــيء يـــسمح لنا بإسقاطه على المستقبل للتنبؤ بما سيحدث. إن الزعم بمعرفة مسار مستقبل التاريخ، ينـــزع كل مسؤولية أخلاقـــية عـــن الحاضر، ويحوّل الناس إلى مجرد منفذين لمصير سيتحقق، مهمـــا كان الحال. ومن وجهة النظر المعادية للتاريخانية الراديكالية لبوبر فـــإن فكـــرة "معنى التاريخ" وفكرة "وجهة" مسار القضايا أو الشؤون الإنـــسانية هي "بلاهة خطيرة"، لأنها تؤدي إلى إعطاء المشروعية للعنف والاعتباط، وهو ما يمكن أن يعرض الناس للسوء.

فكيف نفسر الانهيار والسقوط؟ لقد بدء من النقطة الأضعف، من "المجـــر"، - وان كانـــت أسبابه البعيدة قد تم تحليلها في كتابيه "المجتمع المفـــتوح وأعـــداؤه" و"بؤس التاريخانية" - وكانت نتائجه كبيرة على النظرية السياسية المعاصرة، ولعل اكبر مشكلة تواجهنا هي ليس تحليل ما جرى بقدر الإجابة على سؤال كيف العمل على إقامة بناء جديد؟

ان وجهة نظر بوبر تتلخص في الآتي: ان البناء الجديد لا يقوم على اقتـــصاد السوق، ولكن على دولة القانون والعدالة. لذا يكتسي القضاء وتكـــوين القضاة أهمية بالغة في تصوره. فكيف يتم تنظيم مجتمع ما بعد انهـــيار الاشـــتراكية - وهو سؤال تتقاسمه العديد من البلدان العربية التي اعتمدت التخطيط وإدارة الدولة للاقتصاد - ومنها بطبيعة الحال الجزائر الـــتي مـــا تزال تتخبط في سلسلة الإصلاحات والإصلاحات المضادة - يجـــيب بوبـــر بضرورة الحفاظ على التوازن الصعب بين حرية السوق وتـــدخل الدولـــة، مـــع تفـــضيل لتدخل مناسب للدولة في الآليات الاقتصادية، او كما قال (لا وجود للاقتصاد من دون تدخل للدولة).

وأما عن دور اليمين واليسار في العمل السياسي، فانه يقدم جملة مـــن الأولـــويات المشتركة التي تتطلب تعاون الجميع، وهي: السلم

والتـــربية على اللاعنف والتحكم في النمو الديموغرافي. لا تعتبر هذه الأولـــويات يمينية او يسارية، وانما هي قضايا مشتركة تفرض تعاون الجمـــيع، مـــثلها مـــثل مشاكل البيئة والمحيط. يجب الحد من النمو الديموغـــرافي، ولـــيس الحد من التكنولوجية والصناعة، لاننا نستطيع بالعلـــوم الطبيعية والتكنولوجيا، حماية البيئة والمحيط وليس العكس. كمـــا ان التـــربية على اللاعنف تفرض الرقابة على وسائل الإعلام، مهمـــا كنا محافظين او ليبراليين، يمنيين او يساريين فلا حرية من دون مـــسؤولية، ولا يجب ان نربي الشباب وخاصة الأطفال على العنف، وان دولة القانون تقتضي إقصاء العنف، بل أكثر من هذا، ان تعريف دولـــة القانـــون لا يكون من دون القضاء على العنف. او كما قال (دولة القانون هي الدولة المناهضة للعنف).

وحـــول البديل السياسي الذي يحمل هذه الأولويات، ويكون خـــارج ثنائـــية الـــيمين واليـــسار، يجيب بوبر بقوله: انه النموذج الديمقراطـــي حـــيث يجب الخروج من التمثيل البرلماني على مستوى الأحـــزاب الى تمثـــيل المواطنين، كما يجب ان تقوم الديمقراطية على الحـــرية الثقافـــية للناس واحترام لغاقم وأديانهم وتقاليدهم، من هنا وجـــب على الدولة الديمقراطية حماية الأقليات والتعاون مع الأديان رغـــم الطابـــع العلماني للديمقراطية، شريطة ان نستبعد كل أشكال التطرف والتعصب او الأصولية لأنها خطر على الديمقراطية.

لا تعـــني الديمقراطية حكم الشعب كما هو رائج، إن الديمقراطية هـــي القـــدرة على إقالة الحكومات والقدرة على منع قيام طاغية باسم الـــشعب او أغلبـــية مهمـــا كانت. فليست الديمقراطية حكم الشعب، ولكنها منع انعدام الحرية وتجنب ظهور طاغية او ديكتاتور باسم الأغلبية او باســـم الـــشعب. تقتـــضي الديمقراطية القدرة على إقالة الحكومات

والـــدفاع على المعوزين والمعاقين وخصوصا الأطفال وحمايتهم من عنف وجرائم الكبار، ونقد النـــزعة التاريخية وخطر البحث عن معنى التاريخ، ودولة الحد الأدنى وعلاقتها بالحرية ومسؤولية المثقف ودوره في المجتمع، ومـــسئوليته في حفـــظ السلام والدفاع عن الحقيقة الموضوعية والحكمة والأمـــل في مستقبل مفتوح. مما يؤكد أن كارل بوبر ينتمي إلى ما يمكن الاصطلاح عليه بالليبرالية المحافظة، التي ترى ضرورة تدخل معين للدولة، سواء في الشأن الاقتصادي أو الإعلامي او غيرهما.

ومع ان الفيلسوف، قد عالج أهم الأفكار السياسية المعاصرة، إلا انـــه تجنب الدخول في المناقشات التي أثارها فلاسفة السياسة وبخاصة أفكار "راولس" و"هابرماس" حول العدالة، واكتفى بتقديم مقترحات عملية. كما ان توجهه الليبرالي المحافظ، قد دفعه إلى الدفاع عن النظم الـــسياسية الغربية وبخاصة النظام السياسي الأمريكي، الذي حوله الى نمـــوذج سياسي مثالي، لم يتردد في الدفاع عنه ليس فقط ضد أعدائه في القطـــب الاشـــتراكي، ولكن كذلك ضد خصومه داخل المجتمع الرأسمالي نفسه، من هنا فان قراءة نص كارل بوبر، تستلزم استحضار الـــسياق الثقافي والسياسي المتمثل في الحرب الباردة وما فرضته من التزامات ورهانات.

هـــذا ونشير في الختام، إلا أننا قد أجرينا في هذه الطبعة الجديدة لهـــذا الكتاب، عديد التصويبات والتصحيحات المطبعية والإملائية، وأضـــفنا لهـــا مجمـــوعة هامة من التعليقات المتصلة بالأعلام وبعض المصطلحات، وذلك بغرض تيسير فهم السياق الثقافي الذي ظهر فيه النص. والله ولي التوفيق.

الكويت في يوم 2008/6/14

القسم الأول

الحوار

أولا

النـــزعة السلمية، الحرب، واللقاء بالشيوعية(*)

سؤال: أعـــتقد أن هـــذه المحـــاورة، يجب أن تبدأ بالمهم: نقدكم لماركس، الذي اكتسى شكلا نهائيا في أعمالكم السياسية، وخاصـــة في "المجتمع المفتوح وأعداؤه". هل تستطيعون أن تفـــسروا لـــنا متى وكيف صممتم العنصر الرئيسي لهذا الـــنقد، مـــتى وكـــيف اقتنعتم بضرورة هذا الهجوم ضد "النبوءات الخاطئة" من أفلاطون إلى ماركس مرورا بهيغل، والـــذي نظمتموه بطريقة منهجية في هذا الكتاب الصادر سنة 1945؟

جواب: هذا السؤال يعيدني إلى زمن بعيد والى يوليو 1919، وقتها لم أبلغ بعدها سن السابعة عشرة، طبعا لم يكن لدي بعد الرأي الذي دعّمته فيما بعد في "المجتمع المفتوح وأعداؤه"، لكن مع ذلـــك، قـــبل عـــيد ميلادي السابع عشر في جويلية 1919 بالـــتحديد، رأيـــت من الضروري القيام بنقد للماركسية، وإعـــادة النظر في موقفي تجاه هذه النظرية. وهكذا بعد فترة وجيزة بعدها، في فيفري 1920 تبنيت بشكل كبير، الموقف الـــذي طوّرته طيلة حياتي. ترون إذن أنه ليس وليد الأمس.

(*) ترجمة د. لخضر مذبوح.

وهـــنالك قلـــة اليوم من الذين يستطيعون تذكر وقائع هذه الحقبة. إنها تقريبا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

سؤال: كيف كان موقفكم من موضوع الحرب؟

جواب: لقد كنت محبا للسلام، في وقت كنت فيه تقريبا طفلا، قبل انـــدلاع الحرب حتى، والدي كانا من المحبين للسلام، وكان في مكتـــبة ابي كتـــبا ضـــد الحرب، لأنه كان خصما عنيدا للنـــزعة العسكرية النمساوية. عندما اندلعت الحرب انتابني الخوف، ونبهني ناقوس خطر رؤية كثير من الناس من حولي كانوا أصدقاء لعائلتي، قد أخذوا منعرجا بدرجة انحراف مئة وثمانون درجة، وأصبحوا أنصارا للحرب. يوم عيد ميلادي، أرســـل لي والدي رسالة من فيينا (كنا في عطلة)، شرح لي فـــيها، أنه لا يستطيع الالتحاق بنا لأنه "لسوء الحظ - كما قال - هناك الحرب"، والطريف أن هذه الرسالة كتبت عشية عـــيد ميلادي، والحرب اندلعت فقط - نعم اعتقد جيدا أن هـــذا مـــا حدث - في نفس يوم عيد ميلادي. يعني هذا أنه كان متأكدا ساعات قليلة من قبل، أن الحرب وشيكة وبعد فترة وجيزة من الزمان، التحقت بمدرستي في فيينا، التي كان فيها الجميع يؤيدون الحرب.

سؤال: إذن أنتم أيضا قد تأثرتم بهذا المناخ؟

جواب: لم أكـــن عـــديم الإحـــساس كلية، لقد أثّر فيّ بالطبع بعض الشيء، لكن ليس إلى درجة يحملني فيها إلى الأمل، بأننا نحن - الإمبراطوريات الوسطى - سنربحها طبعا. على الرغم أنه، وخلافـــا للعديد من الآخرين، لم تكن في ذهني فكرة انتصار حقيقي.

سؤال: هـــل أنـــتم مـــتأكدون من تذكر أفكاركم وقتذاك حول الحرب؟

جواب: كـــل هذا أعرفه، لأنه في تلك الحقبة كتبت قصيدة، أتذكر بعـــضا مـــن أبياتها. قصيدة تسمى "الاحتفال بالسلام". لقد كتـــبت أقـــول أن كل الأعداء سيعودون إلى ديارهم، ونحن ســـيكون لـــنا السلام، لكن لا شيء في هذه القصيدة يمثل السلام كشيء حماسي بالنسبة لنا. وأعرف أيضا أنني كتبت هـــذه القـــصيدة في شهر أكتوبر 1914، وبسرعة وفي بداية السنة الموالية، أحسست بنفسي محرجا، حيث بلغ بي الاعتقاد درجة التسليم بفكرة النصر، وفكرة أن الأعداء سيعودون إلى ديـــارهم مهزومين. هذا ما كان موجودا في مخطوط النسخة الأولى لهذا النص (القصيدة). وهذا يعني أنني أصبحت بسرعة خـــصما حقيقيا – ان استطعنا القول – لفكرة هزيمة أعداء الإمبراطوريات الوسطى.

سؤال: مـــا الـــذي حـــثّكم علـــى معارضة الحرب بطريقة أكثر راديكالية؟

جواب: لقـــد كـــان لي مع والدي ما بين 1915 – 1916، حوارات طـــويلة حول الآفاق المستقبلية الممكنة لنا. والنقطة المهمة في هـــذه الحوارات كانت بالنسبة لي، الذي يفكر طبعا كطفل، أن الذين هم على حق سينتصرون، ولم يكن هذا محل شك. لقـــد كانـــت وجهة نظري طبعا بريئة جدا، لأنني بداية من الـــشهور الأولى لـــسنة 1918 أدركت بعد غزو بلجيكا أن حلفـــا مخالفـــا للاتفاقـــيات الدولية قد تم، وأنه كان خرقا للمعاهـــدات. هذا أقنعني أننا نحن الذين كنا على باطل، وأن

معسكرنا هو الذي أخطأ، واستنتجت من هذا إذن وجوب خسارتنا.

سؤال: لحـــد الآن، ومـــنذ بداية هذه المحاورة، لم نتحدث بعد عن الشيوعية، متى اتصلتم أول مرة بأفكار ثورة أكتوبر؟

جواب: خـــلال معاهدة بريست - ليتوفيسك "Brest-Litovsk"[1].

في لحظـــة الاتفـــاق مابين الإمبراطوريات الوسطى وروسيا، كـــان عمـــري يناهز الخامسة عشرة، لقد انفعلت بخطابات الروس، في ندوة السلام. إنه "تروتسكي"[2] طبعا، الذي بهذه المناســـبة عبّـــر عن الأفكار الأكثر أهمية التي نشرت بطريقة تدعـــو للفـــضول بالنمـــسا (لا أعلم إن كان الحال كذلك بألمانيا، بدون شك قد يكون كذلك). إن هذا هو ما جذبني أولا، نحو الشيوعية، لكن كان لي صديق ولد بروسيا، كان واحـــدا من قادة الطلبة خلال ثورة 1905. كان يحذرني من الـــشيوعيين بقوله لي أنهم مستعدون للقيام بأي شيء، بما فيه الأســـوأ، مادام هذا يخدم الحزب. والحق يقال، لقد أخذت تحذيـــراته بـــشيء من الشك، ويعود السبب بالضبط، للأثر الذي ولّدته فيّ خطابات برست ليتوفيسك.

---

(1) معاهـــدة بريـــست ليتوفيـــسك: معاهدة تمت بين المانيا وروسيا، حيث خرجت بموجبها روسيا من الحرب العالمية العالمي.

(2) لـــيون تروتسكي: (1879 - 1940) من القادة البارزين في الثورة الروسية. عـــيّن مفوضـــا لشؤون الحرب بين عام 1917 و1923، حيث أسس "الجيش الأحمـــر". كما كان عضوا في المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية للحزب البلـــشفي. قـــاد سنة 1923، حركة معارضة لستالين. طرد سنة 1927 من الحزب، وتم نفيه في أواخر عام 1927. وفي سنة 1940 تم اغتياله في منـــزله بالمكسيك.

سؤال: إن الاتــصال الأولي بالشيوعية قد تم إذن، وأن ما جذبكم هـــو أنه في خطابات الروس، حديث عن السلام، ولأنك تحتقر فكرة الانتصار العسكري؟

جواب: لقد كنت وقتها في مواجهة المشكلة، التي فيما بعد استرعت اهتمامي أكثر من غيرها ولازالت تسترعي اهتمامي إلى الآن وهي: الشيوعية نعم أم لا؟

سؤال: وأصبحتم شيوعيين؟

جواب: بعد استتباب السلم بفترة وجيزة في 1919، توجهت إلى مقر الحـــزب الـــشيوعي النمساوي، وعرضت عليهم مساعدتي. كان من ضمن القادة الشيوعيين وقتها ثلاثة أشخاص جيرهارد اســـلر "Gerhard Eisler"، وهانـــز اسلر "Hans Eisler" وأخته "فريتي Fritti – كنية لـــ الفرياد Elfreide –" زوجة "فيرلباندر"، التي كانت ربما مطلقة. لقد كانوا الأبناء الثلاثة لفيلـــسوف نمساوي هو ردولف اسلر "Rudolph Eisler". وللـــتذكير، في ســـياق حديثنا، فان جيرهارد كان سيصبح رئيس الحزب الشيوعي الأمريكي قبل أن يطرد من الولايات المـــتحدة الأمـــريكية، بعـــد الحرب العالمية الثانية. اما أخوه الـــصغير هـــانس، فكـــان واحدا من أكبر موسيقيي ألمانيا الـــشرقية، في حـــين كانت فريتي فرايدلندر، التي تحمل إسم "روث فيـــشر"، رئيسة الحزب الشيوعي الألماني، وتعتبر من بين اكثر النساء نبوغا، إن لم أبالغ.

سؤال: كـــل هذه الشخصيات يبدو لي ان لا أثر لها على سيرتكم الذاتـــية الـــتي تتحدثون فيها عن "الأصدقاء الشيوعيون" بصفة عامة، لماذا تتعرضون إليهم الآن؟

جواب: لأن هذه اللقاءات كانت هامة جدا، فلقد تعاملوا معي بكثير من اللطف، ولأنهم فتنوني، ولأنهم في مرحلة أولى، صدّقتهم. لكـــني أدركت بسرعة أنه تكفي برقية من موسكو لتجعل الـــثلاثة يغيّـــرون مواقفهم، بصفة راديكالية، وعلى استعداد للـــدفاع عـــن عكـــس ما أكدوه البارحة، وكذلك باتجاه الأشـــخاص أيـــضا، يغيّرون كلية مواقفهم من يوم لآخر. باختـــصار، لم يكـــن لـــديهم إلا مبدأ واحد: التأييد المطلق لموسكو، ضد كل الرياح والأمواج، وبدون أدنى تردد. لقد كانوا مستعدين لتأييد العكس في كل وقت. عندما أدركت هذا، تزعزعت أفكاري تجاه الشيوعية.

سؤال: حـــسب مـــا أفهـــم، الإخوة إيسلر كانوا أشخاصا ذوي مـــستوى فكـــري معين. سلوكهم هذا، حثّكم إذن على الـــبحث على هذه التغييرات المفاجئة، داخل الأيديولوجية الشيوعية، أكثر من البحث عنها في طباعهم. هل كان هذا هـــو نقطـــة انطلاق التحليل الذي أكملتموه فيما بعد في المجتمع المفتوح وأعداؤه، لقد حان الوقت، ربما لتقولوا لنا فيما يتمثل نقدكم العظيم تجاه الماركسية؟

جواب: نعـــم، هـــا هو فيما يتمثل: تنبأ ماركس بأن الاشتراكية أو الـــشيوعية – لا يهم المصطلح الذي نستعمله هنا – كشكل لديكـــتاتورية الـــبروليتاريا، يجـــب أن تتحقق. لقد كانت الـــضرورة الـــتي يمكن أن تقام بكل يقين من خلال دراسة الـــتاريخ والاقتصاد. وأنها يمكن البرهنة عليها. الشيوعية هي شـــيء يجب أن يحدث، الرأسمالية مجتمع غير مقبول، يجب أن ينتهـــي. هذا ما يجب أن يحدث. وانه بعد تحقق الاشتراكية،

سيكون هناك مجتمع رائع. مجتمع جديد كلية، يتحاب الناس فيه، ويحبون بعضهم بعضا، ويسود السلام على الأرض. تلك كانت نواة المذهب، وتنبؤ ماركس يمكن تأسيسه بكل يقين علمـــي كلية. هذه هي النقطة الهامة، وهو السبب الذي به عــرّفت المذهب الشيوعي كفخ، كنوع من فخ الفأر، ولقد كنت الفأر.

سؤال: لقـــد كتبـــتم حول هذه الحقبة في سيرتكم الذاتية: "لقد فهمـــت لـــب الاســـتدلال الماركسي، إنه يتمثل في نبوءة تاريخـــية مـــشتركة مع نداء ضمني إلى القانون الأخلاقي الـــتالي: أيّـــدوا المحتوم!" يمكن أن يسمح هذا بفهم أفضل لفكرتكم عن "الفخ"؟

جواب: المذهب الشيوعي هو اعتقاد بظهور عالم أفضل، مؤسس على قـــوانين الصيرورة التاريخية. إذا كانت هذه النواة، فعلى كل واحد واجب بديهي – وخصوصا الذين هم مثلي يكرهون الحرب والعنف – أن يؤيد الحزب الذي سيحقق هذا الهدف. إن هذا الأمر الواقع، الذي يجب بكل الطرق أن يحدث، وإذا قاومت شخصية ما – علما بأن الأمر يتعلق بشيء حتمي – فإن هذا يعد جريمة، لأنها تقاوم شيئا يجب أن يحدث، وتصبح بهـــذه المقاومة نفسها، مسئولة أو مشتركة في المسؤولية، عن العنف وعن الموت الذي سيحدث حتى تقام الشيوعية. يجب أن تـــأتي الـــشيوعية، يجب أن تقام، ويجب إذن أن نأمل أن يكون هناك حد ادنى من المقاومة، وعددا أقل، قدر الإمكان، مـــن الذين يضحّى بهم. وأيضا لقد فهم كل واحد أن التنبؤ يمكن البرهنة عليه علميا وأن الاشتراكية يجب بكل الطرق أن

تصبح واقعا، ومن واجب كل واحد، تسهيل ظهورها. ومن أجل هذا، يتصرف الشيوعيون بطريقة غريبة، ويتناقضون من يـــوم لآخـــر، كـــل شيء كان مسوغا، لأنهم سيساعدون الـــشيوعية على الاستيلاء على الحكم. لقد أدركت أن هذه هـــي الـــنقطة الرئيسية، المسألة الحاسمة في التاريخ، والسبب الرئيـــسي لكل نشاط، وهذا ما يسوغ كل الاختيارات. في الواقـــع لم يكن فقط تسويغا – لأنه من الواضح أنه يمكن أن نخطـــئ – وحتى القادة الشيوعيون يمكن أن يرتكبوا أخطاء، لكن كل هذا يظهر كأخطاء ثانوية. الشيوعيون يحاربون من أجـــل شيء يتوجب أن يتحقق. وهذا ما أسميته الفخ، الذي وقعت فيه لفترة وجيزة.

سؤال: شهور قليلة ثم غيّرتم فكركم، ماذا حدث خارج التقلبات التي تعرضتم لها من قبل أصدقائكم؟

جواب: بـــدأت سلـــسلة من الأحداث مثيرة للجدل جدا. تم إيقاف بعـــض الشيوعيين، في "فيينا"، وحجزهم بمحافظة الشرطة. لنـــرى هـــذا. قرّر الحزب تنظيم مظاهرة للمطالبة بإطلاق ســـراحهم، مظاهرة شارك فيها خصوصا الشباب. وخلال هـــذه المظاهرة، أطلقت الشرطة النار وقتلت ستة شبان. لقد رأيـــت مـــا حدث، لأنني أنا أيضا كنت ضمن المتظاهرين. ودفعـــني هذا إلى التفكير، في سيرة القادة الشيوعيين، كل ما حـــدثت أشـــياء فظـــيعة، كلما كان الأمر أفضل، لأن هذا يـــساعد على التهييج (وهو عامل ضروري) للثورة الكبرى. فلـــم يحسوا إذن بالندم كثيرا حول ما حدث. في حين أنا، أحسست أنني كنت مسئولا عن موت هؤلاء الشبان.

سؤال: هـــذه النقطة ليست واضحة تماما، لا في سيرتكم الذاتية، ولا في أحاديثكم السابقة، أين تعرضتم إلى هذه الحلقة من حـــياتكم، لأنكـــم وكخلاصـــة لذلك قررتم الابتعاد عن الـــشيوعية، في الوقت الذي كان فيه الشبان الشيوعيون يموتـــون مـــن قـــبل شـــرطة فيينا، في هذا اليوم لم يطلق الـــشيوعيون النار، بل كان لهم ضحايا في صفوفهم، وهنا تحديدا تخليتم عنهم، أليس هذا مثيرا للفضول؟

جواب: لقد عبرت عن الشعور بالمسؤولية، لأنني كنت أعتقد أن من حقـــنا التـــضحية بأنفسنا، وأن نعرض حياتنا للخطر، لكننا شـــجعنا أشخاصا آخرين لمواجهة الخطر، والتعرض لإطلاق الرصاص، وهذا ما لم يكن من حقنا فعله. القادة الشيوعيون لم يكـــن لهـــم الحق أن يقولوا للآخرين أنه يتوجب عليهم التـــضحية وتعـــريض حـــياتهم للخطر. هؤلاء الشبان الذين ســـقطوا كانـــوا عمـــالا، ونحن المثقفون ملتزمون بوجه ما بالمار كـــسية. في تلك الحقبة، كنت أتردد على الجامعة، كنا طلـــبة، نستطيع قراءة كتب ضخمة، ونحس أن من حقنا أن نقـــول للـــناس: "هاهو ما سيكون: الشيوعية يجب أن تأتي، ويجـــب علينا أن نناضل من اجل اظهارها". لقد أدركت أننا كنا مسئولين عن هؤلاء الناس الذين كنا ندفعهم للمجازفة، وبـــدأت أتساءل: "هل الأمر حقا هكذا؟ هل أنا قادر حقا علـــى التأكـــيد علـــى قيمة البراهين الماركسية، القائلة أن الشيوعية ستحدث حتما؟ هل أستطيع أن أذهب لرؤية الناس الـــذين لا يستطيعون قراءة ماركس، وأقول لهم: لقد تحققت وجـــربت وراقبت ماركس بصفة نقدية، وأستطيع أن أؤكد

لكـــم أن مـــا يقـــوله صحيح، وأن براهينه صحيحة، وان الـــشيوعية ســـتقام وسننتـــصر، مع كل ما يتضمنه هذا من تضحية؟"

سؤال: وماذا فعلتم إذن؟

جواب: لقـــد قررت دراسة ماركس بعمق، وهو ما لم أقم به في هذه الفتـــرة. لقد استعملت ماركس، لقد توجّب عليّ استعماله، لكـــن لم يكن لديّ إلا معرفة سطحية به، وكان يجب عليّ الآن أن أدرس مذهبه وبراهينه بعمق كبير.

ثانيا

الانتقادات الأساسية للماركسية[*]

سؤال: في هـــذا الوقت بدأتم تحددون العناصر الأساسية لنقدكم للماركسية. كيف توصلتم إلى ذلك؟

جواب: لقد بدأت بدراسة "رأسمال Le Capital" وانتهيت إلى خلاصة مؤداها ان أطروحته الأساسية، او لنقل الأطروحة <<رقم 1 >> هي كالتالي: الرأسمالية لا يمكن إصلاحها، ولا يمكن إلا هـــدمها او تحطيمها، وإذا كنا نصبوا إلى مجتمع راق فيجب تحطيم الرأسمالية. والأطروحة الأساسية الثانية، او الأطروحة <<رقـــم 2>> هي تلك المتعلقة بالإفقار المتنامي، وبحسبها فان ظروف العمال ستزداد سوءا بعد سوء. وهذا ما يستبعد كل إصلاح ممكن للرأسمالية، ويؤدي الى تحطيمها. كما أنني اســـتخرجت من خلال هذه الدراسة، أطروحة أخرى هامة ومفـــيدة جـــدا وهـــي: لا يجـــب تجريم وتوبيخ الرأسماليين شخـــصيا، لأنهـــم هم أنفسهم ضحايا النظام. يجب التذكير بهذا، لان الشيوعيين لم ياخذوا ذلك بعين الاعتبار. وتاريخيا لا يمكن الشك في أنهم أدانوا الرأسماليين على المستوى الفردي او حاولـــوا أن ينفروا منهم، في حين أن ماركس[1] قد ساند

(*) ترجمة د. الزواوي بغوره.

(1) كـــارل مـــاركس: (1818 – 1883)، فيلسوف ألماني، مؤسس الفلسفة المادية والنظرية الشيوعية من أهم أعماله:مساهمة في الاقتصاد السياسي، الايدولوجيا الألمانية، الرأسمال.

فكرة أن الرأسمالية هي نوع من الآلة الساحقة للرأسماليين وللعمال على السواء، وأنهم لا يستطيعون فعل أي شيء خارج ما تمليه عليهم الآلة الرأسمالية. لقد كانت هذه الأطروحة في تناقض مع احد المعالم الأساسية للدعاية الشيوعية، بالرغم من ان ماركس ذاته رفض ما وصفه بـ <<بالماركسية المبتذلة>> وفكرة ان الرأسماليين سيئين وأنهم يستغلون الناس بالخداع. ولكن في الواقع كانت<<الماركسية المبتذلة >> هي التصور المدعم والمساند من قبل الحزب الشيوعي. ولقد كان الحزب يرى ان من حقه ان يساند هذه الفكرة – فكرة ان الرأسمالي مسئول شخصيا – لأنه كان يعتقد ان له الحق في كل ما من شانه ان يساعده على التعجيل بالثورة. وهنا يكمن الفخ والمصيدة والشراك والمكيدة. وظيفة الحزب تسمح له بإثارة الحقد والكره بقصد الوصول الى الشيوعية. هذا هو ملخص الموقف الاساسي الذي توصلت اليه بعد دراسة ماركس.

سؤال: ولكنكم لم تعددوا كل العناصر الاساسية لنقدكم. هنالك عناصر تابعة لهذه الانتقادات.

جواب: هنالك انتقادات اخرى، واعتقد انها كانت مهمة. انها تلك الاطروحة التي عرضتها بعد نشر كتابي "المجتمع المفتوح واعداؤه" انه تطور لاحق. ومضمونها تحديا: ان الراسمالية كما وصفها ماركس لم توجد على الاطلاق. وانما هي محض اختلاق، نوع من الخيال الشيطاني او الرواية الشيطانية. صحيح انه كان هنالك دائما اغنياء وفقراء، وان الفقراء يعانون دائما، وان الاخلاق تقتضي ان نساعدهم وان نساعد

المعوزين. واليوم ما يزال هذا المشكل مطروح علينا كذلك، ويجب التدخل الى جانب هؤلاء المعوزين. الا انني لا اعتقد اليوم، بان الامر يتعلق بالعمال. صحيح انه حتى اليوم هنالك فقراء – وسنرى لاحقا من هم هؤلاء الفقراء – ولكن مشكلة المجاعة وظروف العمال لا تطرح كما كانت تطرح في زمن ماركس. مع مراعاة الفارق وهو ان مجتمع تلك الحقبة كان منكوبا ومشؤوما، ولاجدال في ذلك، ولكن هذا لم يكن موضوع ما وصفه ماركس بالراسمالية التي لا يمكن اصلاحها. هذا المجتمع يمكن اصلاحه، في حين ان الاطروحة المركزية لماركس كانت تقول انه لايمكننا الا تحطيمه. لاحقا، وافق او قبل بان انقلترا يمكن ان تحدث فيها ثورة غير عنيفة، وهو ما يعني ان المجتمع الراسمالي يمكن اصلاحه. لم يقل هذا بشكل صريح، ولكنه بين انه من الممكن ان يحدث التغيير من دون عنف، ولكن في انقلترا فقط، وليس في أي مكان آخر.

وبالفعل فانه خلال حياة ماركس حدثت اصلاحات كثيرة، اصلاحات هامة وكبيرة في انقلترا وفي غيرها من البلدان وخاصة في المانيا في عهد "بيسمارك Bismarck"[1]. ان ما قاله في موضوع ان الراسمالية التي لا يمكن اصلاحها قد تم رفضه واقعيا، وهو على قيد الحياة. وهو ما يعني ان ما كان يسميه بـ <<الراسمالية>>، هذا المجتمع حيث يكون الراسمالي والعامل محكوم عليهما ضمن آلية لا تعمل الا على الحط شيئا فشيئا من وضعيتهم، هذا المجتمع لم يكن له وجود

(1) بيسمارك: (1815 – 1898) زعيم سياسي الماني، عمل على توحيد المانيا، فعينه الملك فيلهلم الاول رئيسا للوزراء سنة 1862.

ابدا. والاطروحة المتعلقة بالتدهور عند ماركس، تنطبق على الـــراسماليين انفسهم، حيث يتم اقصاء الكثير منهم. يحدث الراسمالي الكثير من القتلى، لقد كانت هذه احدى الصيغ او العــــبارات المعروفة عند ماركس، لانه كان يعتقد انه سيقلّ الراسماليون شيئا فشيئا وان الناس سيصبحون اما ضحايا هذه العملية او بروليتاريين. الا ان مثل هذا المجتمع لم يوجد على الاطـــلاق، وانـــنا نخطيء عندما نصنف مجتمعنا، بانه مجتمع رأسمالي، لانه يجب ان نفهم من هذا اللفظ المعنى الماركسي، وهـــذا المعنى لا ينطبق على مجتمعنا. هذا هو النقد الرئيسي الـــذي ارفعه ضد الماركسية. ويمكن لنا ان نضيف نقدا آخر ويـــتعلق الامر بفكرة ماركس التي بحسبها يكون الراسماليون هـــم الديكـــتاتوريون المتسترون بالدولة، وان الدولة في ظل الراسمالية، هي ديكتاتورية مسيرة من قبل الراسماليين. ان هذه الفكرة ليست اكثر من رؤية فكرية. فليس هنالك أي مجتمع، تكون فيه كامل السلطة السياسية للراسماليين. ان الواقع اكثر تعقـــيدا مـــن هذا، و لم يكن ابدا بهذه البساطة التي اعتقدها مـــاركس. يجـــب الاعتراف بانه هو الذي ادخل في العلوم الاجتماعـــية وفي فهـــم الـــتاريخ فكرة جد هامة وهي ان للشروط الاقتصادية تأثير كبير على العديد من ملامح الحياة والمجـــتمع. هنا وضع مبدءا مخالفا، على سبيل المثال، لكل ما قاله المؤرخون قبله. وانه لمن الصحيح القول انه قبل ماركس ليس هنالك تاريخ اقتصادي جدّي. ولكن ككل الرواد لقد دفـــع باكتشافه هذا الى مبالغات كبيرة، وذلك عندما ارجع كـــل الاســـباب الى المجال الاقتصادي. لقد كان يعتقد ان

للاقتـــصاد قيمة تفسيرية كلية وكونية، وهذا من دون شك خطـــا، لان هنالك في المجتمع، عوامل اخرى جد مؤثرة مثل الدين والقومية وعلاقات الصداقة والزمالة. ففي "فينا" على سبيل المثال كل القادة الاجتماعيين الديموقراطيين تتلمذوا في نفـــس المدارس وكانوا اصدقاء منذ سن الدراسة، وفي انقلترا نجـــد لجامعة "اكسفورد" تاثير معتبر في السياسة: تقريبا كل رجـــال الـــسياسة لجميع الاحزاب كانوا اصدقاء في مرحلة الدراســـة الجامعية. مثل هذه العناصر تلعب دورا في المجتمع، والفكرة التبسيطية القائلة بديكتاتورية الراسماليين لا تتناسب على الاطلاق مع الواقع.

ثالثا

سنة 1962،
خروشوف والانحطاط السوفيتي(*)

سؤال: لقـــد استخرجنا بوضوح نقدكم لفخ الفأر، وشرحتم لنا كـــيف وقعتم فيه، وكيف تحررتم منه فيما بعد. لقد حان الـــوقت الآن للتعرض لمسألة الشيوعية السوفيتية، وفحص كيف خرجت بلدان كاملة وملايين الأشخاص منها.

جواب: هـــذه هي النقطة التي أرى أنها مهمة اليوم: أسباب الانحطاط الـــسوفيتي. ولـــتحديدها يجـــب أولا رؤية كيف أصبحت الماركسية في روسيا، وكيف اصبح هذا المذهب مادة فكرية خـــصوصا في المـــرحلة ألاولى. لقد كتبت كمية كبيرة من الدراســـات، وأخـــذت أشكالا متنوعة، خصوصا في ألمانيا وذلـــك بفـــضل أناس مثل "كارل كاوتسكي"(1) و"إدوارد برنـــشتاين"(2). وفي روسيا وايطاليا أيضا، عرفت الماركسية تطـــورا هامـــا، لكن ألمانيا هي التي كانت في مقدمة الصف حـــيث استخرجت منها فلسفات، وتأسست أشكالا متعدد

(*) ترجمة د. لخضر مذبوح.

(1) كارل كاوتسكي: (1854 – 1938)، أحد زعماء الحركة الأممية الشيوعية الثانية، ممثل الاتجاه الوسط في الاشتراكية.

(2) إدوارد برنشتاين: (1932 – 1850) احد زعماء الاممية الثانية، ممثل الاتجاه اليميني في الاشتراكية.

ومبدعة لأدب وفير. في روسيا، طبعا، مع وجود الشيوعيين في الحكــم، أصــبحت الماركسية في الجامعات وعلى كل مــستويات الــبرامج الدراسية، مذهبا راسخا في أذهان كل الــشباب، وفي حقــبة أقرب الينا هي حقبة خروتشوف[1]، وهــي الفتــرة التي أرجعت إليها بداية الانحطاط السوفيتي. أعــتقد أن لا أحــد من فريق القيادة السوفيتية، كان يأخذ الماركــسية مأخذ الجد، فلم تكن إلا وسيلة لتدعيم النظام، وإطالة بقاء الأشياء.

في الواقــع، هناك نقطة ونقطة واحدة فقط، أخذت مأخذ الجد، وهي فكرة أن العدو الرأسمالي، يجب أن يدمر. ويتعلق الأمر بعــدو معــروف هو طبعا، الدول الرأسمالية الكبرى. ويعني إجمــالا الــولايات المتحدة وبريطانيا، اللتان يجب تدميرهما. وباقــي النظرية، قد انحل عمليا، ماعدا هذا المبدأ. في كتاب "مذكــرات غير منشورة" لخروتشوف، هناك صيغة بسيطة جدا، هي مفتاح كل الكتاب: "القضاء على النظام الرأسمالي هي المسألة الحاسمة في تطور المجتمع". وكان على خروتشوف أن يقول: "تطور التاريخ" وليس "تطور المجتمع"، لكن المعنى واحــد، والتمييز بكل بداهة، ليس محددا. إنها طريقة أخرى للقول أن التاريخ يشترط القضاء على الرأسمالية.

(1) خروتــشوف: (1894 - 1971)، قائد شيوعي، حكم الاتحاد السوفييتي من سنة 1953 الى سنة 1964. ارتبط اسمه بحادثين اساسين الاول وهو التقرير الذي رفعه الى المؤتمــر العــشرين للحــزب الــشيوعي سنة 1956 حيث فضح الممارسات الستالينية. والثاني وهو ازمة الصواريخ الكوبية سنة 1962، التي كادت ان تؤدي الى حرب عالمية ثالثة.

سؤال: لقد شك البعض في أصالة هذا الكتاب؟

جواب: من جهتي، ليس لي أي شك حوله. إن تزوير أو انتحال هذا النص، كان عملية محيّرة. إنه يحتوي على أكثر من ستمائة صفحة (600)، ويحتوي على الكثير من التفاصيل والإشارات إلى وقائع، بما فيها مكالمات ستالين[1]، ولاختلاقها كان يستوجب القيام بأبحاث خلال سنوات وسنوات. في الواقع، طرح التزوير لم يؤيد أبدا، حتى وإن كانت قصة الكتاب غريبة: لقد خرج سريا من الاتحاد السوفيتي، وظهر لأول مرة، في حدود علمي بالانجليزية. أعتقد أن الذين يعرفون شيئا عن تاريخ روسيا، يعتبرونه أصيلا. ولأجل هذا نستطيع أن نفترض أن كاتبه نفسه هو الذي يحكي حياته، ويقدم أفكاره. يتعلق الأمر بكتاب ليس كبقية الكتب الأخرى، لأنه يسمح لنا بفهم هذا القرن، وخصوصا لحظة الانفلاق الأعظم للمنعرج الكبير: أزمة كوبا سنة 1962.

سؤال: لماذا تعتبرونه أكثر أهمية؟

جواب: بالنسبة لي، هنا خسر الاتحاد السوفيتي الحرب خلال هذه المحاولة لتدمير أمريكا. ومع هذه المحاولة انهارت الفكرة الماركسية الوحيدة التي بقيت. ومن هذه اللحظة بدأ الانحطاط الذي أدّى إلى الانهيار العام، لأنه في هذه اللحظة بالذات، كان للاتحاد السوفيتي الفرصة التي لم تمنح له أبدا من قبل: فرصة تدمير الولايات المتحدة. فالسوفيت لم يأملوا أبدا في تحقيق هدفهم – المهمة التي أوكلها إليهم التاريخ –

(1) ستالين: (1878 – 1953)، احد القادة البلاشفة، حكم الاتحاد السوفياتي ما بين 1928 – 1953. تميز حكمه بالديكتاورية المطلقة وبعبادة الشخصية.

مادامـــوا لم يمـــتلكوا قنـــبلة سخاروف[1]، هذه القنبلة التي يـــتحدث عنها الفيزيائي الروسي في مذكراته. وهذا الكتاب هو الذي جعلني أغيّر رأيي حول دور هذا الرجل. أعتقد أنه كانت له مسؤوليات إجرامية.

سؤال: تـــتحدثون عن رجل نال سنة 1975 جائزة نوبل للسلام، والـــذي أنـــتم أنفـــسكم امتدحتموه كثيرا في سنة 1981 بحديـــثكم عـــنه كـــ "مفكر وإنساني عظيم وبطل كبير". الجمـــيع كـــان يعـــرف أن سخاروف كان صانع القنبلة الهيدروجينية، لماذا غيّرتم رأيكم اليوم؟

جواب: أحتفظ بفكرة رفيعة عما قام به في هذه العشريات الأخيرة، لكـــن كمـــا سترون، هناك في هذا الكتاب عناصر أرغمتني على تغيير رأيي. إن حالة سخاروف مهمة جدا. لا نستطيع أن نتعرض لكل مظاهرها هنا، وسيكون من مهمة المؤرخين تعميق هذه المسألة. أريد فقط أن أذكر على سبيل المثال، ما كتـــبه حـــول موضوع "القنبلة الكبرى" في مذكراته: "لقد قـــررت تجـــريب نسخة "خاصة Propre": قنبلة ذات قوة مختزلة، لكن القنبلات الكبرى تتجاوز أيضا تجاوزا بعيدا كل شـــحنة جرّبت سابقا، وستكون آلافا عديدة أكثر قوة من القنـــبلة الملقاة على هيروشيما[2]". ماذا يعني "آلافا عديدة" نستطيع أن نفترض أن هذا يعني على الأقل ثلاثة آلاف مرة،

---

(1) ســـخاروف: (1921 – 1989)، عـــالم فيزيائي روسي، شارك في تطوير القنبلة الهيدروجينية. نال جائزة نوبل للسلام عام 1975. تم اعتقاله عام 1980 ونفيه إلى مدينة جوركي الروسية النائية الأمر الذي جعل منه ضحية للحرية. تم الافراج عنه عام 1986.

(2) في هذا المقطع يتحدث عن سخاروف في سنة1961.

إنهــا فرضية، لأن سخاروف لم يكن له مزاج مثير للجدل، ولاعتــبارات عديدة، لم يكن محمولا على المبالغة. فإذا قال "آلاف المــرات"، وبخصوص "نسخة" للقنبلة الأضعف بقليل من النسخة التي كان قادرًا على انتاجها، يعني هذا أن قنبلته الهيدروجينـــية كانت بكل تأكيد، ثلاثة آلاف مرة أكثر قوة من قنبلة هيروشيما. لقد جربت هذه القنبلة في سبتمبر 1961 . لقــد اشتغل عليها سخاروف طويلا، تحت قيادة ستالين. وتعــاون مع "بيريا"[1]، الذي كانت له معه أحاديث خاصة في مناسبات عديدة وخلال ساعات وساعات. وبعد سنوات مــن التجــريب، كــان الاختبار الحاسم سنة 1961. كان خروشوف طبعا على علم بكل شيء، لقد كتب في مذكراته غير المنشورة، بعد أن علم بالنتيجة الايجابية لهذا الاختبار" إنه خلال زيارة لبلغاريا، جاءتني فكرة وضع صواريخ ذات رؤوس نـــووية في كوبا، بدون أن يعلم الأمريكان بذلك، وحتى يكون قد فات الأوان لكي يستطيعوا فعل أي شيء لنا".

سؤال: لقــد نجــح الاختبار، وخروشوف كانت له فكرة كوبا، كــيف فسّرها المؤرخون والفكرة جاءت من بلغاريا، مع الــتفكير في القذائف النووية الموضوعة ليس بعيدا من هنا بتركيا، ماذا كان هناك من جديد في هذا المشروع؟

جواب: تكمن الجدة في البعد الحقيقي للقوة النووية السوفيتية، في هــذه اللحظة بالذات أي سنة بعد تجريب القنبلة، ينتقل خروشـــوف لتحقيق فكرته. تم نقل القنابل سرا إلى كوبا

(1) بيريــا: عــضو المكــتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي، ومسؤول الجهاز السري في عهد ستالي. تم اعدامه سنة 1953.

وأمكـــن وضع ثمانية وثلاثين (38) رأسا نوويا، حتى وإن كانت غير جاهزة للإطلاق قبل أن يكتشف الأمريكان ما يجـــري. خروشـــوف نفسه كتب بهذا الخصوص "لم يكن لديـــنا الوقت لإيصال كل سفننا إلى كوبا"، لكن يضيف "لقد وضعنا قبل صواريخ لتدمير نيويورك وشيكاغو والمدن الأخـــرى الـــصناعية، دون الحديث عن قرية صغيرة مثل واشـــنطن". وحـــتى لو عبّر من بعد بطريقة مختلفة، فإن الزعيم السوفيتي، قد قدم مرّة ثانية هذا الاعتراف "أعتقد أن أمريكا لم توجد أبدا، مثل ما وجدت في هذه اللحظة بالذات في مواجهة تهديد حقيقي بالتدمير". ولذلك يجب علينـــا أن نقـــوم بالحساب التالي: كل رأس من الرؤوس الثمانـــية والـــثلاثين الموضوعة بكوبا، لها ثلاثة آلاف مرة القوة المستخدمة في هيروشيما، وهذا يعني ان قوة تدميرية كامـــنة تساوي 114000 مرة قنبلة هيروشيما، قد نجح في الى إرسالها.

سؤال: ولقد كان التاريخ، خلال هذه الأزمة، قاب قوسين أو أدنى من الكارثة، نعرف هذا من قبل...

جواب: لكن ما كان يجهله "جون كينيدي"[1] الرئيس وحتى "روبير" أخوه، الذي لعب دورا كبيرا في هذه القضية، ومؤلف كتاب "ثلاثـــين يوما Thirteen days"[2] - كتاب آخر مهم حول

(1) جون كينيدي: (1917 - 1963)، رئيس الولايات المتحدة الامريكية ما بين سنة 1961 وحتى سنة اغتياله في 1963. تميزت مرحلة حكمه باشتداد الحرب الباردة بين امريكا والاتحاد السوفياتي، وهو ما عبرت عنه ازمة الصواريخ الكوبية.

(2) Robert Kennedy, Thirteen days a memory of the Cuban missiles crisis, New York Norton, 1969.

مسألة صواريخ كوبا -. بكل تأكيد كانا يعرفان أنها كانت إمكانيات كبيرة، لكن لا أعتقد أنهما كانا يدركان مداها، هذا مـا نعـرفه الآن بفضل المعلومات التي أعطاها لنا سخاروف سـهوا في هذا المقطع. معلومات لم أعثر عليها في مكان آخر، حـتى في كتاب أحدث منه، والموثق جيدا حول هذا الموضوع "كينيدي إزاء خروشوف Kennedy Versus Khrutchev" لميخائيل بيشلوس[1].

سؤال: تريدون القول أن لا أحد من المؤرخين أشار إلى هذا المقطع في مذكرات سخاروف؟

جواب: لا أريد مهاجمة المؤرخين، بحكم أنه لم يكن لهم الكثير من الـوقت، لكـنني لم أرى أية دراسة نقدية تشير إلى هذا المقطع.

سؤال: غيرتم رأيكم حول سخاروف بسبب قوة قنبلته؟ كنا نعرف أنه كانت لها قوة تدميرية كبيرة.

جواب: الآن، أود لفـت الانتـباه حـول الـنقطة التالية في كتاب سـخاروف: "بعد اختبار القنبلة الكبرى، اهتممت بواقع أن العـسكريين لا يستطيعون استعمالها بدون ناقل فعال، لأن الطائرة المقنبلة سهل إسقاطها" بعبارة أخرى، القنبلة لا يمكن نقلـها بواسـطة الـصواريخ التي يمتلكها السوفيت. اهتم الفيزيائـي بهذه المشكلة، مع انه ليست مهمته. لكن لنواصل ونـرى ماذا يقول: "لقد بذلت ما في وسعي لإنجاح مشروع طـربيد torpille كبير، يطلق من غواصة، ومجهز بمحرك، له

---

(1) M. Beschlos , Kennedy versus the crisis years 1962 - 1963 , New York , Faber & Faber. 1991.

طاقـــة نـــووية تحـــول المـــاء إلى بخار. وستكون الأهداف المستهدفة هي موانئ العدو البعيدة بمئات من الآلاف. طمأننا خـــبراء في البحـــرية، أننا سننتصر في الحرب، إن نحن دمرنا القـــواعد البحرية للعدو. بنية الطربيدات ستكون بنية أكثر صلابة وضمانا لمقاومة انفجار الألغام، وثقب الشباك المضادة للطـــربيدات. عـــندما تصل إلى أهدافها، شحنات المائة ميغا طـــن، ســـواء تحت الماء أو في الهواء، تحدث عددا كبيرا من الـــضحايا". يمكـــنكم بالمناسبة أن تدركوا أن سخاروف لم يكن عاملا سلبيا مطيعا لأوامر، لكنه شخص مكرس بنشاط لمهمـــته. يقول كذلك "استشرت الأميرال فومان Fomin في بداية مشروع Torpedo – الطربيد الكبير – لقد كان محيرا ومـــشوشا ومـــضجرا مـــن فكرة إبادة جد فظيعة ومرعبة، ولاحـــظ أن ضباط الأسطول قد تعودوا على محاربة خصوم مـــسلحين فقـــط، في معركة مفتوحة. لقد أحسست حقا بانحـــراف في المـــزاج، ولم أتكلم في هذا الموضوع مع أي أحد. ولم أهتم بعدها أبدا بجعل هذه الفكرة مقبولة: إنها لم تكـــن متطابقة مع المذاهب العسكرية المعتادة، .وكان من الجـــنون إنفـــاق مـــبالغ ضـــخمة ضرورية لتحقيق هذا المشروع". انظر "منحرف المزاج بعمق". هذا هو ما يقوله سخاروف. بعد أن "بذل ما في وسعه" لتصميم هذه الآلة الرهيبة، التي كانت ستدمر نيويورك في لحظة، فإنه يستمع ويتناقش ويلتقي بمسئولي البحرية، يتناقش مع أميرال. هذا الأخـــير يجـــيب، لا نحارب هكذا، وهو (اي سخاروف) يحس بـــ "انحراف في المزاج"!

سؤال: لقد عرفتم اينشتاين. هل تعتقدون أن موقفه حول موضوع صنع واستعمال القنبلة كان مختلفا؟

جواب: نعم. قبل أينشتاين العمل حول القنبلة الذرية، لأنه كان يؤمن أن الألمان كانوا بصدد صنع آلة ذرية نووية، وقام بهذا العمل من أجل الدفاع عن أمريكا. سخاروف، كان هو في اللحظة الـــتي تحدث عنها، لا يزال شيوعيا وهذا يعني، اذا استعملنا مصطلحات خروشوف "إنهاء" الرأسمالية. لم يكن وسيلة، أو أداة ســـلبية بـــين يدي الزعماء المعتدين. بل كان بالأحرى، على العكس، منغمسا كلية في هذه الفكرة. لقد كان عمره تـــسعا وثلاثون سنة (39)، عندما جرّبت القنبلة، وأربعون عندما ذهب للقاء الأميرال.

سؤال: توجهـــون لـــسخاروف همـــا مرعبة. لماذا تراجعتم عن حكمكـــم الذي أصدرتموه منذ حوالي عشر سنوات، فيما يفيد فتح ملف قضية سخاروف مرة ثانية؟

جواب: لأن هـــذا يبرهن أنه حق، بالنسبة لرجل مثل سخاروف، الـــذي يتحلى بذكاء كبير، والذي كان يمكن أن يرى أن النظام السياسي السوفيتي قد جعل من هذا البلد مكانا رهيبا – وهو ما أدركه لاحقا – الا انه كان كألاعمى كلية. في كتابه لم يقل أبدا "كنت عاملا أنفذ أوامر" كان يستعمل، لنـــردد عـــبارة خروشوف، نفس كلمات مجرمي الحرب الألمان. وقال له يوما "سأقوم بواجبي" لقد كان هذا بمناسبة جـــدال حول التجارب النووية. كان يعرف سخاروف أن كـــل انفجار تجريبـــي من هذه القنبلة الخارقة للعادة، يعني مرضـــا بالـــسرطان بواسطة الإشعاع لآلاف الأشخاص.

ويقول أنه حاول إقناع الزعيم السوفيتي بأنه لا يجب القيام بها، وهو ما أجاب عنه خروتشوف بأنه "مسألة سياسية" وليست مسألة "علمية"، وغضب جدا منه، لأنه يشتغل بالسياسة "سأقوم بواجبي" ردّ عليه سخاروف، وهناك الكثير ما يقال حول مسؤوليات سخاروف، يجب العمل طويلا حول مذكراته.

سؤال: لكن سخاروف قدم أيضا وجها آخر. لقد غيّر فكره وبرهن على شجاعة كبيرة وتحدى النظام، وأصبح واحدا من أنصار المنعطف الديمقراطي؟

جواب: اتخذ سخاروف المبادرة، دون أن يطلب منه أحد ذلك، لبرمجة نمط جديد من آلات الطربيد بغية تدمير أمريكا. وواضح أنه كانت تتملكه فكرة إنهاء الرأسمالية. لقد وقع في ما أسميته فخ الفأر، في الثقب الأسود الفكري لإيديولوجية تزعم معرفة مسار التاريخ والقوانين التي تحدد تطوره الضروري والمحتوم. ولا نستطيع أن نقول أن رجلا بلغ الأربعين لازال صغيرا لا يستطيع الحكم. صحيح كلية أنه فيما بعد، غيّر فكرته. لكن إذا قاتلكم رجل في سن الأربعين، وتمكن بعد بضع سنوات من بعد أن يتأسف على ذلك، وأنه كان عليه ألا يفعله، هل يمنعه هذا من أن يكون قاتلا؟

أحتفظ، برأي رفيع للقسم الأخير من حياة سخاروف، لكن مع انزعاجي الكبير، يجب عليّ تصحيح حكمي العام حوله. بالنسبة لي، كان أولا مجرم حرب، وهذا لا يمكن أن يعذر فيه، لا لشيء إلا لقاء ما قام به لاحقا.

سؤال: لا نـــستطيع مع ذلك إلا أن نأخذ بعين الاعتبار واقع أن ســـخاروف قـــد شبّ بالاتحاد السوفيتي، وأنه كان طفل عصره وبلاده؟

جواب: صـــحيح أنه كان في موقف أصعب من موقفي، وأنه كان يـــستطيع بسهولة، أقل من السهولة التي كانت لي تعيين "الفـــخ". أنا كنت أعيش في بلاد حرة، حرة نسبيا عندما خـــرجت من هذا الفخ، في سن السابعة عشرة، كان هو يعـــيش بالاتحـــاد السوفيتي وقام بهذا التعيين متأخرا جدا. وهـــذا لا يدل، إلا على السلطة التي استطاعت أن تمارس تـــأثيرا كـــبيرا مـــن خلال ايديولوجيتها، على أشخاص يتمـــتعون بـــذكاء وموهبة وشجاعة خارقة للعادة، ولقد كانـــت لـــسخاروف الفرصة للبرهنة على أنه كان يمتلك الشجاعة.

سؤال: لكي نعود إلى أطروحتكم المتعلقة بأزمة الصواريخ الكوبية، مـــا الذي يثبت أن خروشوف كان سيستعمل القنابل لو نجـــح في إرسالها سرا؟ وأن هدفه لم يكن بالأحرى احداث مفاوضات مع الأمريكان على قدم المساواة (صواريخ كوبا ضد صواريخ تركيا)؟

جواب: نقـــل شـــيء مثل 114000 قنبلة من قنابل هيروشيما إلى كـــوبا، بغية التوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة، هذا أمـــر لا يـــستقيم. لـــو كانت القنابل جاهزة للإطلاق، لاســـتعملها خروشـــوف، لردع الأمريكان بأكثر سرعة ممكـــنة. وكـــان مـــن الممكن للزعيم السوفيتي أن يقول لكينـــيدي: "أنظروا، لديّ ما أمحوكم به من الخريطة، إذن

فمـــاذا تعطـــوني". لأن الـــولايات المـــتحدة لم يكن في استطاعتها، أن تفعل غير ذلك، تطلق بدورها قنابلها أليس هذا بديهيا؟ في مثل هذه الحالة، لم يكن لأمريكا أي خيار، وخروشوف لا يستطيع ألا يعرف أنه لم يترك لخصومه إلا اللجـــوء إلى الأســـلحة الـــنووية. ولا يمكن رؤية الموقف بطريقة أخرى: أعلم أن لديكم مليونا في الجيب، وأنا لديّ مـــسدسا، لكن أيضا أنتم أيضا لديكم مسدسا، إذن، إذا عـــرفت أنكـــم أنتم أيضا مسلحون، وإذا عرفنا كلانا أن الآخـــر مـــسلحا، فلن أستطيع أن أقول: "هو ذا سيدي، جئت لأتناقش معكم"؟

سؤال: لقـــد أدخلتم مشكلة سخاروف وأزمة 1962 لتحدّثنا عن الانحطـــاط الـــسوفيتي. الآن يجب تفسير، بوضوح أكثر، أطروحتكم التي تتحدد مقدماتها الأولى في هذه الحقبة. إن فـــشل هـــذه المحاولة العسكرية لخروشوف، كانت، كما يقولون، بداية النهاية. تعتقدون إذن أن هذه المحاولة كانت آخـــر إمكانـــية للاتحاد السوفيتي لإلحاق الهزيمة بالولايات المتحدة؟

جواب: نعـــم لقد كانت الأولى والأخيرة. الأولى، لأنه بدون قنبلة ســـخاروف، فإن السوفيت، لم يكن لهم أي حظ لتدمير أمـــريكا بدون حرب، أي بواسطة اغتيال. والأخيرة، لأنه بدايـــة مـــن هـــذه اللحظـــة، عرف السوفيت دائما، أن الـــولايات المـــتحدة لـــن تتردد لحظة، إن جدّت ظروف مطابقـــة لهـــا. إنها الأولى والأخيرة، وأنه بهذا الفشل، قد مهّد للانحطاط.

سؤال: إذن، تعتقدون ان الأسباب العسكرية هي التي ادت الى انحطاط الاتحاد السوفيتي والشيوعية؟

جواب: نعم، هذه هي الفكرة الوحيدة الأساسية، الفكرة الأخيرة، التي بقيت من المذهب الماركسي. كانت الفكرة تقول: الرأسمالية يجب أن تدمر. والطبقة الحاكمة للديكتاتورية الشيوعية، كانت تقدر أنها أداة التاريخ، التي بواسطتها ستدمر الرأسمالية، ويتم انقاذ العالم. ومن أجل هذا، فيما بعد، واصل السوفيت صنع القنابل، ولا شيء غير ذلك، مع علمهم أنهم لا يستطيعون استعمالها. وهو ما كان على المستوى الفكري شيئا غير ذي معنى على الإطلاق. وبداية من هنا، فان الآمال التي كان يستطيع السوفيت تغذيتها، لم يفعل إلا على تحللها. ورغم هذا، صنع هذا البلد، ما يقارب 1400 قنبلة ذرية، الواحدة منها ذات قوة ثلاثة آلاف قنبلة هيروشيما، وهو ما يعطي على الأقل مجموع ثلاثة ملايين ومئتي ألف(3.200.000) قنبلة من قنابل هيروشيما. وكل واحدة منها يمكن أن توجد في السوق السوداء، وقد وجدت بالفعل، دون حساب أن الصينيين أيضا يستطيعون منافستهم في هذه السوق. هذا هو الموقف المرعب الراهن، إنه أول تحد يجب رفعه.

سؤال: سنعود الى هذه النقطة الأساسية في سياسة اليوم. لكن الآن، أود أن تكملوا تحليلكم للانحطاط السوفيتي: لماذا بعد هذه الحقبة وبعد سنة 1962 – التي كانت آخر إمكانية برأيكم "لإنهاء" عسكري للولايات المتحدة الأمريكية، وأن الكثيرين يرون انها كانت على الأقل آخر

إمكانية منحت للتوصل إلى توازن عسكري بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي – استمر النظام الشيوعي طويلا؟ ولماذا لم يحدث المنعطف النهائي الا مع غورباتشوف[1]؟

جواب: لأنه لم يوجد على رأس الاتحاد السوفيتي، رجلا مثل غورباتشوف يدرك ضرورة تغيير الفرضية القاعدية لكل السياسة الروسية، التي تقول أن مهمة هذا الشعب تتمثل في تدمير الرأسمالية، يعني أمريكا، وغورباتشوف هو كذلك الزعيم الوحيد الذي زار الولايات المتحدة مرات عديدة، وهذا هو المهم، لأن هذا سمح له بمعرفة الواقع الأمريكي، وترجم إرادته للبرهنة على تفهم تجاه شعب حر، شعب غير عدواني نحو الاتحاد السوفيتي، والذي يأمل أن يكون للاتحاد السوفيتي نفس الموقف. إنه غورباتشوف الذي أعلن هذه الجملة المهمة: "أريد أن أجعل من شعب الاتحاد السوفيتي شعبا سويا". هنا واحدة من كلماته العميقة – والحق يقال – التي تثبت أنه رأى جيّدا أن شعبا سيكون فيه أناس مثل سخاروف، يستطيعون أيضا أن يصبحوا عدوانيين، بدرجة لا تصدق. ليس "شعبا سويا" هذا هو امتياز غورباتشوف انه فهم أن شعبه، لم يكن "سويا" في حين أن الشعب الأمريكي كان "سويا" أريد أن أقول من وراء هذا، أنهما كانت لهما مواقف مختلفة كلية، وأن الأمريكان لم يكن في رؤوسهم

---

(1) غورباتشوف: (1931 -.)، امين عام الحزب الشيوعي السوفياتي ورئيس الدولة من سنة 1985 الى سنة 1991. دعا إلى اعادة البناء والشفافية. وفي ظل حكمه تفكك الاتحاد السوفياتي.

اللعب المرعب، الذي تحدثنا عنه. كل الذين يعرفون أمريكا، يعرفون ماذا أريد أن أقول.

سؤال: تعتـــرفون بهذا الامتياز لغورباتشوف، لكن نعلم جيدا أنه لـــيس لكـــم رأيـــا رفيعا حوله؟ لقد قرأت محاورتكم مع "ريكـــاردو شـــيابيرج" الـــتي أكـــدتم فـــيها أن كـــتابه "بيريـــسترويكا"[1]، كـــتاب "فارغ كلية"، وأنه ليس إلا "ريحـــا"، وزيادة على هذا تقولون أن "يلتسين"[2] ليس إلا "رجلا مريضا بأناه".

جواب: نعم، أدعم هذه الأحكام، لقد أيّدت دائما، أن غورباتشوف كـــان من المحتمل ان يكون رجلا صاحب نوايا طيّبة، لكنه بـــدون أفكار، ولا مخططات دقيقة، كما يستنتج من كتابه. ومـــع ذلـــك له امتياز كونه فهم الفرق الموجود بين الموقف السوفيتي والموقف الأمريكي، وأيضا، أنه بحاجة إلى مساعدة الولايات المتحدة. أما فيما يخص يلتسين، يبدو أنه لا يهتم الا بنفسه، وخاصة رغبة الثأر من غورباتشوف.

سؤال: كـــان هنالك دائما امر وهو انه مع هذين الرجلين وصلنا إلى المنعطف الكبير، وإلى حل النظام السوفيتي، كيف كان حسب رأيكم العمل الحاسم، الذي أدى إلى سقوطه؟

جواب: إن الـــواقعة الحاسمـــة التي أدت إلى انهيار الأنظمة الشيوعية، كانـــت هـــروب ألمـــان ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية عبر

---

(1) البيروســـترويكا او اعـــادة البناء وهو عنوان كتاب غورباتشوف، الذي طرح فيه برنامجه لتجديد الاتحاد السوفياتي، بالاضافة الى شعار الغلاسنوست او الشفافية.

(2) بـــوريس يلـــستين: (1931 – 2007) أول رئيس لروسيا المعاصرة، حكم ما بين 1991 - 1999.

النمـــسا. أعتقد أنه، حتى ولو أن الاتحاد السوفييتي لم يختزل، إلا إلى نـــوع من الفضاء الفكري الفارغ، لكان يستطيع أن يـــستمر إلى الأبد، أو على الأقل لمدة أطول. لكن ما عجّل الحـــركة، كـــان قـــرار المجريين بفتح حدودهم لألمان ألمانيا الديمقراطية سابقا، والسماح لهم بالالتحاق بألمانيا الغربية عبر النمـــسا. وهذا سبب أزمة النظام الألماني الشرقي، وكل ما تلاه وتبعه. عند هذا المستوى، لم يكن يستطيع غورباتشوف تجنب الكارثة. وكان يمكن إرسال جيوش إلى المجر، لكنه لم يكـــن مستعدا لمثل هذه المبادرة، وزيادة على هذا، ما كانت الـــولايات المـــتحدة لتسمح بذلك. لهذا، نستطيع القول أن الـــواقعة الحاسمة جاءت من المجر. وهذا ما أعتقد، على كل حال، ونعرف جميعا، ما حدث سنة 1989، وما حدث منذ الأزمة الألمانية.

رابعا

الأسئلة السياسية على جدول الأعمال، دولة القانون والأطفال(*)

سؤال: لقد وصلنا إلى نهاية النظام السوفيتي. أحب الآن أن نناقش نتائج هذه الأحداث، بداية في البلدان التابعة له سابقا ثم بعد ذلك في مجموع الساحة السياسية العالمية. من وجهة النظرية السياسية، ما هي النتائج التي يمكن استخلاصها؟

جواب: في البداية أريد أن أأكد، انه لا يمكن لنا ان نبني من الأعلى مجتمعا قائما على الاقتصاد الحر. ما يمكن ان نفعله من الأعلى، والذي يجب علينا أن نفعله دائما، وما يتحتم على الحكومات ان تفعله، هو محاولة إقامة دولة القانون. والروس في حاجة إلى دولة القانون، ولكن لا احد يقول ذلك الآن، ولم اسمع أحدا يتكلم عن ذلك. ومن اجل الوضوح، أريد أن اشرح الفارق الكبير، حسب رأيي، بين ما فعله غورباتشوف وما كان يجب عليه ان يفعله. وفعلا فان ما فعله شيء مضحك وسخيف، وذلك عندما انشأ بورصة القيم في موسكو، وتم تدشينها تحت رعاية الكنيسة الأرثوذوكسية كما رأينا ذلك في الصور الفوتوغرافية.

(*) ترجمة د. الزواوي بغوره.

سؤال: لماذا تعتبر إنشاء البورصة في موسكو مهزلة؟

جواب: لأنـــه لا وجـــود لا للقيم ولا للنقود التي تشترى. لا قيم - بمعـــنى الاســـهم - ولا للنقود. أريد أن أقول، نقودا حقيقية وليس الروبل. ومع ذلك فلقد انشأ بورصة للقيم، اما الشيء الـــذي لم يكن موجودا وما يحتاجه الروس بالدرجة الأولى، هـــم القضاة، ليس القضاة الذين ينتقيهم الحزب الشيوعي، وإنمـــا قضاة مكرسون لدولة القانون، القضاة الذين يشعرون انهم مسئولون على عملية تأسيس دولة القانون في أوطانهم او بلـــدانهم. لقـــد كـــان القضاة والى حد الآن مجرد وسائل للديكـــتاتورة في الاتحاد السوفيتي. وليس هنالك قانون يحدد الاجراءات العادية التي تحفظ حقوق الجميع، ... الخ. من هنا كان يجب البدء من القضاء وليس من بورصة القيم.

وحـــتى نابليون "Napoléon"[1] كان يعرف انه يجب إنشاء قانـــون وإقامـــة تشريعات إذا أردنا أن نقيم مجتمع السوق الحرة. إلا انه لا احد قد قال هذا بشكل واضح، حتى هنا في بريطانيا، حيث توجد تقاليد عريقة لدولة القانون. فحتى هنا كذلك، يجب أن تكون هذه الضرورة واضحة، بما ان الفساد والرشـــوة تتداخل بشكل واسع مع السوق الحرة. في انكلترا تهـــتم الشرطة دائما بما يجري في عالم البورصة. ثم ان النضال مـــن اجـــل دولـــة القانون لم ينتهي في أي مكان، حتى هنا عـــندنا، في المجتمعات الغربية. وفي روسيا كان على الحكومة ان تقوم بهذه الخطوة الأولى والوحيدة. ولكن بدلا من هذا،

(1) نابليون بونابرت: (1769 - 1821)، قائد عسكري وإمبراطور فرنسي.

فإنهم حاولوا وبكل الوسائل إدخال نظام جديد في الاقتصاد. إننا لا نستطيع إقامة نظام اقتصادي من الأعلى، لأنه لا يمكن ان يكون لنا اقتصاد حر إذا لم يكن لدينا أناس لهم أفكار في الاقتــصاد، أفكـــار في هذا القطاع او ذاك، أناس يفرضون أنفسهم من خلال عرضهم لمنتوج لا يقترحه احد، خبز جيد تفاح جميل فلفل كبير...الخ أي كل ما يريده ويرغب فيه الــناس ويحتاجونه، يجب ان تكون لهم المقدرة على تقديمه ولكـــي يكـــون هذا ممكنا يجب قبل كل شيء أن تكون هنالك آلية تحمي الذي يشتري والذي يبيع، الا وهي آلية السوق.

سؤال: طرحت هنا نقطة مركزية في تفكيرنا اليوم، يكتنفها بشكل عام نوع من اللبس: يتعلق الأمر بالعلاقة بين حرية السوق وتـــدخل الدولة، بين المبادرة الحرة في الاقتصاد وبين المهام المـــوكلة للهيئات السياسية والعامة التي لا يجب ان تتخلى عنها. فأزمة الأنظمة الشيوعية ذات الاقتصاد المخطط قد أدى إلى نـــوع من الرأسمالية المتوحشة - محرومة أو مجردة من الفعل الناظم للسلطة السياسية - رأسمالية في الواقع لا وجود لها، لانها لم توجد حتى في العالم الغربي. والحال فإنكم في "المجـــتمع المفـــتوح وأعـــداؤه"، بمعنى في العمل الذي تنـــتقدون فيه التسيير الاشتراكي باعتباره تسييرا شموليا، والذي لم تكونوا فيه سذجا لدرجة ان تعتقدوا ان الليبرالية تعني غياب كل أشكال تدخل الدولة. لقد ساندتم في هذا الكتاب فكرة تفضيلكم لتدخل تدريجي وديمقراطي مثل ما هو الحال في الاتجاه الاجتماعي - الديمقراطي السكندنافي.

لنوضح جليا هذه النقطة، حتى نرى اذا كنا نستطيع تقديم اقتـــراحات عملية للسياسة الحالية والمستقبلية، في الشرق كما في الغرب. لنبدأ بهذا: ما هو في رأيكم، ذلك التوازن الصعب بين السوق والتدخل الاجتماعي؟

جواب: لنـــبدأ بالقـــول انـــه لا وجود لاقتصاد حر من دون تدخل للدولـــة. ان هـــذا الإقـــرار يـــبعد جملة من الأفكار المعينة والمـــتداولة: لا يمكـــن أن يكـــون هناك اقتصاد حر، لنكن واضحين، من دون تدخل الدولة.

سؤال: لماذا؟

جواب: لديـــنا تقاريـــر تاريخية لما جرى في الأسواق الحرة المتوسطية méditerranéenne قـــديما. كانت سفن فنيقيا phénicien ترسي على شواطئ أثينا Athènes، حيث يتم تبادل السلع. ولكـــن في اليوم الذي رجع فيه الفينيقيون حاملين الأطفال اليونانـــيين معهم، دق ناقوس التبادل. وبطبيعة الحال لم يجرؤ الفينيقـــيون بعد هذه الخطوة، على العودة إلى أثينا. هل تفهم مـــا أريـــد قوله؟ لقد سرق الفينيقيون، وبالنظر إلى كونهم سرقوا أطفالا، فان إقامة سوق أصبح أمرا مستحيلا. فإذا لم يكـــن هـــنالك نظام تشريعي قائم سلفا، لا يمكن أن تكون هـــنالك سوق حرة. يجب ان يكون هنالك فرق بين الشراء والبيع من جهة، والسرقة من جهة أخرى. والحال فان نظاما كهـــذا لا يمكـــن أن يقـــوم إلا بواسطة الدولة. وحتى في المجـــتمعات الـــتي لا تحصل فيها السرقة الا مناصفة بمعنى من خلال الرشوة، فان هذه الأعمال كذلك لا تتلاءم مع سوق حـــرة. على سبيل المثال يمكن أن نشير إلى الحالة التي حدثت

في انكلترا مع الانهيار المالي لـــ "ماكسويل Maxwell". هذه كـــذلك، كانت ولو نسبيا مسالة رشوة وسرقة أموال، بمعنى ان ماكـــسوال قـــام باقتراض الملايير من البنوك و لم يستطيع تسديدها. كل محاولة لإقامة ما نسميه "الراسمالية" لا يؤدي، في غياب نظام من القوانين، إلا إلى الرشوة والفساد والسرقة. الفـــارق بين دولة محدودة التدخل ودولة واسعة التدخل لا يعـــتد بـــه مقارنة بالمجتمع الذي له نظام تشريعي ومجتمع لا يملك مثل هذا النظام.

سؤال: انك تقوم بعملية قلب لبعض الأفكار المهيمنة ليس فقط في الـــشرق ولكـــن في جهات أخرى، والتي من خلالها يمكن إقـــصاء مختلف الوظائف السياسية أو الانتهاء منها. ما هي نتائجها على سبيل المثال على تطور المجتمع الروسي؟

جواب: اعـــتقد أن الأمـــر يـــتطلب سنوات حتى يتم تأسيس نظام تشريعي في الاتحاد السوفيتي سابقا، سنوات حتى يتمكن من إقامـــة شيء يشبه السوق الحرة. ومن الآن إلى ذلك الوقت ســـنعرف وسنشهد كل أنواع الانقلابات والتغيرات. الناس تذهب الى روسيا وتعود جيوبها ممتلئة، تاركين خلفهم ديون وفوضـــى مالية. هذا لا شك فيه. ففي ظل غياب نظام من القـــوانين، لا يمكن ان نقيم الا الفوضى او "العماء chaos"، هـــذه هي أطروحتي أساسا. واعتقد أننا أهملنا كل هذا، لأننا مازلـــنا تحـــت تـــأثير الماركسية، بمعنى الاستمرار في تفكير الاقتـــصاد والتقلـــيل من أهمية النظام التشريعي، لأنه بحسب مـــاركس، القوانين هي نوع من القناع والتنكر من السرقة. لهذا السبب إننا نرتكب خطا خطيرا.

سؤال: إذن أنت تعتقد ان تدخل الدولة محدد في إقامة نظام تشريعي ودولة القانون، انه شرط مسبق او مقدم لسوق حرة. لننظر الآن كيف ان تدخل "الفعل العام action publique" يمكن أن يساعد في تحديد دور اليمين واليسار. ولكن هذين اللفظين <<يمين>> و<<يسار>> هل ما يزال لهما معنى ما عندكم؟ هل يمثلان تقسيما دائما للساحة السياسية وهل من المفيد الاحتفاظ بهما؟

جواب: أملي الكبير، انه مع زوال الماركسية، نتمكن من إقصاء واستبعاد الضغط الذي تمارسه الأيديولوجية في قلب السياسة. تثير الماركسية حتما وجود أيديولوجية مناهضة للماركسية، لهذا كانت هنالك مواجهة بين إيديولوجيتين كانتا، بمعنى ما، مجنونتين كلية. والحال انه خلف هذه المواجهة، ليس هنالك اية حقيقة، وإنما فقط مشاكل وهمية ومسائل خاطئة. ما أتمناه، منذ أن كتبت "المجتمع المفتوح وأعداؤه" هو ان ننجح في إنشاء قائمة للأولويات التي نطبقها في المجتمع.

سؤال: هل يمكن ان تخبرنا بهذه القائمة من الأولويات؟

جواب: النقطة الأولى هي السلم. والمسالة الأولى متعلقة بما سبق أن تحدثنا حوله والخاصة بقنابل سخاروف ومن أن الرؤوس النووية المنتجة في الاتحاد السوفيتي والصين تباع مع الآسف، في السوق السوداء. الحفاظ على السلم، هذا يعني بان كل المجتمعات المتحضرة، والتي ما زالت متحضرة، عليها أن تعمل من اجل إبعادها أو استبعادها من السوق السوداء. ولعله يجب شراءها، ولما لا؟ قد يكون ذلك أفضل طريقة

لامـــتلاكها بكل أمان. إذا أردنا ضمانا حقيقيا للسلم، يجب على هذه الدول أن تتعاون حتى نصل، إن أمكن إلى وضعية حـــيث تكون فيه القنابل في أيدي الشعوب المتحضرة، من اجـــل أن تحطمها وان لا تحتفظ إلا بكمية قليلة منها، وذلك لأســـباب أمنية. هنا تكمن النقطة الأولى من القائمة، والتي تـــتطلب تعاون جميع الأطراف. ولا يجب اعتبارها من طبيعة أيديولوجية.

ثم بعـــد ذلـــك، يجـــب وضـــع حد للانفجار السكاني او الديموغرافي. هذه النقطة كذلك، أي النقطة الثانية في القائمة، رئيسية بالنسبة للعالم كله. فكل هذه الأحاديث حول المحيط والبيئة لا تغني شيئا اذا لم نتصد للمشكل الحقيقي وهو النمو الـــرهيب للـــسكان. انه هو الذي يتسبب في هدم وتخريب المحـــيط. وهـــنا أيضا، علينا ان نتعاون بعيدا عن الانتماءات الإيديولوجية.

الـــنقطة الثالثة وهي التربية. وفي هذا المجال، اعتقد انه يجب وضـــع بـــرنامج حيث على الجميع أن يتعاون. لقد قدمت مداخلة منذ سنوات حول هذا الموضوع، في غرفة اللوردات بطلـــب مـــن الحـــزب الديمقراطي - الاجتماعي، وكانت أطـــروحتي، ومازالـــت إلى حد الآن، هي: نحن نربي أطفالنا علـــى العـــنف بواسطة التلفزيون ووسائل الاتصال الأخرى المختلفة. لقد قلت في هذه المناسبة، ومازلت أآمن بذلك، إننا في حاجة، مع الأسف، للرقابة.

سؤال: **يـــأتي هذا التأكيد تدقيقا من ليبرالي مثلكم. في الواقع، ان تـــردي وســـائل الإعلام، يعاقب غالبا، وخاصة الولايات**

المـــتحدة الأمريكية، ولكن على العكس من ذلك فانه في ألمانيا مسموح به من قبل الليبراليين. التنديد بأضرار أفلام الجنس والعنف احد فرسان المعركة لمعارضي اللبرالية.

جواب: انـــي آســـف لأنني قلت ذلك، ولأنني تحديدا ليبرالي ولأنني لست مع الرقابة. ولكن صحيح أيضا بأنه لا يمكن أن تكون هـــنالك حرية من دون أن تكون هنالك مسؤولية. فلو كان كـــل واحد يعيش بصفة مسئولة كاملة - كما كان يجب ان يعـــيش - ويفكر في نتائج أفعاله على الأطفال، لن نكون في حاجة إلى الرقابة. إلا انه مع الآسف، الأمور ليست كذلك، والوضعية تزداد سوء بعد سوء: الناس يرغبون أكثر فأكثر في العنف ويطلبون ذلك من التلفزة أن تعرض ذلك أكثر فأكثر. إنـــنا لا نقبل هذا التصعيد. لقد قرأت في الجرائد قصة ذلك الـــشاب الإيطـــالي، الـــذي قتل والديه من اجل أن يسرق دراهمهم بمساعدة صديقيه[1]. فبالإضافة إلى مأساوية الحدث، فـــان ما هزني هو حجم المساندة الذي تلقاه بعد أن ارتكب هـــذا الفعـــل. لذلك أتساءل: أليست هذه حجة تؤكد أنني علـــى حق عندما حذرت من خطر توجيه تربية الشباب نحو العـــنف؟ رســـائل دفـــاع القاتل تأتي بكل بداهة من أناس يقضون نهارهم أمام الشاشة، شباب يشاهد التلفزة لساعات وســـاعات. لقد كنت مربيا، واعرف ان الأطفال لا يحبون العـــنف. وعـــندما يحـــدث ان نشاهد أفلاما في السينما مع

(1) يـــشير بوبر الى "بيترو مازو"، الشاب الفيروني الايطالي، الذي كان يبلغ من العمر 19ســـنة، والـــذي قـــتل ابـــاه وامه بمساعدة صديقيه، من اجل الحصول على الأموال.هذه القضية نشرت بشكل واسع ومكثف في الصحف البريطانية.

الأطفـــال، أفلام مغامرات حيث يموت احد الممثلين، نعرف تمامـــا أن الـــصغار يغمّضون عيونهم عند أول خطر يظهر أو يـــبدو أو يلـــوح، إلى غاية اليوم الذي ينكسر فيه شيء ما. وكمـــا الأحصنة التي نحضرها لمواجهة العنف، فان الأطفال كـــذلك ينـــتهون إلى المطالبة بالمزيد من العنف، لان العنف يتفوق على عاطفة الخوف والنفور.

بهـــذه العملية، نحن نخلق ونسهم في خلق وضعية مستحيلة. والحـــال إن دولة القانون تقتضي أولا وقبل كل شيء إقصاء العـــنف. وأقول أكثر من هذا، إن هذا هو التعريف الصحيح لدولـــة القانـــون. إنني لا استطيع حسب القانون ان اضرب أحـــدا أو أي شـــخص آخر. ان حرية وحقوق يدي تنتهي عـــندما تبدأ حرية الآخرين في الدفاع عن أنوفهم، هذه هي الفكرة الأساسية لدولة القانون. ولكن في الوقت الذي نقبل فـــيه أن نختزلها إلى الصفر أو إلى اللاشيء أو إلى العدم، فان الـــنفور العام الذي يوحي به العنف، من أننا نخرب ونعرقل دولـــة القانـــون وان الاتفاق العام يقل، نكون قد شرعنا في تحطيم وتخريب حضارتنا.

سؤال: النقطة الثالثة في قائمتك، هي إذن تربية الأطفال.

جواب: واجبنا يفرض علينا ان نربيهم بشكل صحيح، تماما كما يحتم علينـــا ان نعلمهـــم القـــراءة والكتابة. بتعبير آخر، علينا أن نتجنب حدوث انتهاء المقاومات الطبيعية للعنف عند غالبية الناس.

سؤال: انـــه نوع من التدخل الأخلاقي، يثير الفضول جدا، لأنه صـــادر من قبل ليبرالي مثلكم ظهر في السنوات الأخيرة،

على سبيل المثال، في مقابل المدافعين عن المحيط والبيئة، بأنه مـــع فكرة حل المشاكل بواسطة سوق حرة كلية. إلا أن انحطاط او تدهور وسائل الإعلام هو اثر من أثار السوق.

جواب: حـــرية السوق أساسية، ولكنها ليست مطلقة. إنها صحيحة بالنـــسبة للسوق، وكذلك لبقية الأشياء. لكن الحرية المطلقة عبث. لنأخذ عبارة كانط: ما نحن في حاجة إليه، هو مجتمع حـــيث حرية الفرد متعادلة مع حرية الآخرين. حريتي ليست مـــتعادلة معك إلا عندما نرفض معا استعمال العنف. أنا لا أضربك وأنت لا تضربني. ترى إذن أن حريتنا محدودة. وإذا لم يكـــن الأمر كذلك أو إذا لم تكن الحالة كذلك، إذا كان احدنا يريد أن يضرب الآخر، في هذا الحالة يتدخل القانون. القانون يحمينا من العنف ومن الجريمة. هذه هي القاعدة وهذا هـــو المعيار، وهذه هي دولة القانون. فلو لم يكن هنالك أي شـــخص يـــرغب في القتل لما احتجنا إلى القانون. ولكن في الـــوقت الـــذي يكون فيه فرد يرغب في الضرب، فإننا في حاجة إلى هذا العنصر للتدخل وللتوسط. ولهذا السبب قلت انـــه اذا مـــا ربّيـــنا أطفالنا بشكل أفضل، ولجأنا إلى الرقابة كإجـــراء من بين الإجراءات الأخرى التي نلجأ إليها، فإننا نحصل على حرية أكثر. ولكن إذا ما نسيناها او تخلينا عليها او أهملـــناها، فإنـــنا سنحصل على حرية اقل. دولة القانون تتطلب "اللاعنف LA Non-violence"وهو النواة الأساسية. وكلما قمنا بواجبنا في التربية على اللاعنف، كلما وسعنا من دولـــة القانون، بمعنى تطبيق القوانين في ميدان النشر والتلفزة والاتـــصال او الإعـــلام الجمـــاهيري. انه مبدأ بسيط جدا.

والفكرة هي نفسها او هي ذاتها: توسيع حرية كل واحد إلى أقصى حد ممكن في اطار الحدود التي تفرضها حرية الآخرين. ولكــن اذا اســتمر الوضع كما هو عليه الآن، فإننا سنجد أنفــسنا بــسرعة، في مجتمع يصبح فيه الاغتيال والقتل عملة متداولة.

سؤال: انك تتحدث عن مبدأ سياسي وهو مبدأ أخلاقي في الوقت نفسه؟

جواب: عليــنا واجب أخلاقي إضافي نحو أطفالنا: علينا أن نعطيهم أفضل ما نملك، وان نمارس عليهم أحسن تأثير ممكن من اجل أن نسعدهم. إن هذا ليس بجديد، إن القواعد التي تسمح لي باستعمال كفي هي القواعد التي تسمح لك بحماية انفك. ان هــذا مبدأ ليبرالي أساسي. إنني لا ابتعد عن الليبرالية عندما اشترط وألح على أن دولة القانون يجب أن تتسع للدفاع عن الأطفال، الذين هم اعز وأثمن وأغلى ما نملك.

سؤال: نعــرف الآن الأولــويات التي تضعها على جدول أعمال الــسياسة. يــتعلق الأمر بموضوعات السلم والتحكم في النمو الديموغرافي والتربية على اللاعنف، وهي موضوعات تتطلب تعاون الجميع من دون تمييز او تفريق. بالنسبة لك هذه الموضوعات ليست لا يمينية ولا يسارية؟

جواب: نعــم، ليست يمينية ولا يسارية. هذه الأولويات تبين لنا ما يمكن أن يحل محل التمييز يمين/يسار. وهو ما يعني انه علينا ان نفكــر فيما يجب ان نفعله حتى نحقق هذه الغايات. علينا أن نضع جانبا تطلعاتنا الفردية وان نركز على ما يجب أن تكون علــيه تطلعاتــنا جميعا، وليس على جزء خاص من المجتمع.

ولكـــن عليـــنا خاصة، أن نطالب ان كان هنالك من اسميهم بالمعوزين، ومن هم هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون في ظروف صـــعبة والذين هم في حاجة الى مساعدة. إنني أفكر في المعوقين والمرضى العقليين على سبيل المثال. ان هذه العناصر كلها يجب ان تـــشكل قائمـــة الأولويات، طبعا، يجب ان تكون مفتوحة للحـــوار والتشاور. وفي النهاية، يجب استبدال النظام المرعب الخـــاص بالأحـــزاب، والذي يجعل من النواب الذين يمثلوننا حاليا في البرلمان تابعين للحزب، ولا يوظفون جهودهم الا في المـــرتبة الثانية عندما يتعلق الامر بالشعب. في اعتقادي هذا النظام يجب إلغاؤه وعلينا العودة إلى وضعية حيث النواب او الممثلون يستطيعون القول في البرلمان: نحن نمثلكم ولا ننتمي إلى أي حزب. يجب إقامة مثل هذا النمط من التمثيل، الذي يـــوجد هنا وفي بلدان اخرى. وانه مع سقوط الماركسية فان لنا فرصة للمضي في هذا التوجه. أما بالنسبة للأولويات التي أشـــرت إليها، فإننا نأمل أن ننتظر او نجد حزبا، مهما كان، يقـــبلها ويعلـــن عـــن قبولها كما هي. وان يدفع بالأحزاب الأخرى إلى أن تتعاون لخلق وضعية جديدة.

سؤال: نعـــرف تـــصورك للـــتدخل الديمقراطـــي وكذلك قائمة أولـــوياتك. على هذا الأساس أو القاعدة، ما هو النموذج السياسي الذي تراه او تعتقد انه مناسب وملائم لمرحلتنا: النموذج الاجتماعي – الديمقراطي، الليبرالية، الاشتراكية الغربية أم أشكال سياسية أخرى تحددها؟

جواب: النموذج السياسي الجيد هو بالأساس النموذج الديمقراطي، ديمقـــراطية لا تهدف إلى إقامة هيمنة ثقافية. بتعبير آخر،

علينا أن نعمل من اجل السلم ومن اجل الأهداف الأخرى الـــتي حدثـــتك عنها، ولكن الخاصية او الميزة الأساسية للديمقراطية يجب أن تكون هي الحرية الثقافية للناس، وان لا يسيروا من الأعلى. وهو أمر غير بسيط، لأنه من اجل خلـــق مـــثل هذه الوضعية، يجب من بين ما يجب، تثقيف كـــبير للـــناس. يجب ان نعي بان التلفزة قتلت عددا من الآمال في مجال الثقافة. منذ شبابي، مرت الكثير من الأمور والأشـــياء المرعبة، كانت أسوء من الآن. الكثير من الناس لم تكـــن حـــرة، والكثير يموتون بالمجاعة، وخاصة النساء اللواتي ينحدرن من الطبقات الدونية، لم يكن لهن أي خيار أو أمل، لاشيء. الشابات اللواتي يعملن بوصفهن خادمات عند الخواص كان لهن توقيت مرعب و لم يكن لهن إلا يوم واحـــد للراحة كل أسبوعين، اثنتي عشرة ساعة من الحرية يقـــضينها خارج منـــزل سيدهن. مرة كل خمسة عشرة يـــوم، هذا اسوء من ان يكن عبيدا! هكذا كان الحال في أمـــريكا قبل 1914 وفي أوروبا حتى سنة 1920. نستطيع القـــول إذن اليوم، بأننا نعيش في عالم أفضل. إلا أن عالمنا مهـــدد بـــشكل مـــن التربية الجنوني. اعتقد انه وفي هذه النقطة، علينا ان نتحرك، وانه في الوقت الذي نستطيع فيه وضع نظام تربوي مسئول حقيقة، نستطيع ان نعود فيه الى الـــيوم الـــذي كان فيه العنف استثناء. الا انه في الوقت الحاضر، وبحسب الوتيرة التي تحدث بها الأشياء، فان العنف أصـــبح أكثـــر فأكثـــر جزء من مشهدنا اليومي وأصبح الاهتمام الوحيد لأكثر الناس.

سؤال: ولكـــن كـــيف ندفع بعملية سياسية تسمح بتحقيق هذه الأهـــداف التي أعلنتها أو أشرت إليها؟ أين نجد الطاقات الـــضرورية لذلك؟ كيف نحقق أو نصل إلى تحقيق موافقة الـــناس علـــى هـــذه الأولويات؟ هل نلجأ إلى الاعتراض التقليدي الذي يعارض الليبرالية بـــ: إنها ضعيفة جدا حتى نجعلـــها مقـــبولة عـــند القـــوى المعارضة، وعند المشاعر والرغبات والمصالح والقناعات المعارضة؟

جواب: علـــى الاعتراض التقليدي، أجيب إجابة الليبرالية التقليدية: عليـــنا أن نعترض على العنف. لنعتبر هذا، على سبيل المثال: مـــنذ ثلاثين سنة، كل الأحزاب كانت تطالب بعدم العنف. وكان لها نفس الطموح او الامل في عالم من غير عنف. الا ان هذه الفكرة اليوم، التي كان الاتفاق عليها أمر بديهي، قد تم نسيانها. والمثال الايطالي الذي ذكرته سابقا، يبين بوضوح وجـــلاء إن الأطفال والشباب يواجهون خطرا حقيقيا: وهو التعود على العنف. إنهم يعجبون ويستحسنون الذين يقتلون والـــديهم طمعا وجشعا. لانهم لا يحبون ان ينتظروا، ولانهم مـــتلهفين. انه لشيء مهول ومرعب. وإننا نحن الذين خلقنا هـــذه الوضعية، وسمحنا بحدوث هذا. لقد رأينا وشاهدنا ما يحـــدث، ولكن كنا من الغباوة بمكان، بحيث إننا لم نعترض علـــى ذلك. مازال هنالك وقت للتدخل، إلا انه محدود. لا يمكن أن نستمر على هذه الكيفية والحالة.

سؤال: رجـــال الـــدين والكنائس يقولون: <<نحن لدينا جواب نقدمه، ولكن انتم ايها العلمانيون والليبراليون أو غيركم، ليس لديكم ذلك>>؟

جواب: إنـــي مـــع التعاون مع الأديان. وقبل كل شيء، إنهم يعرفون جـــيدا، هم كذلك، بانهم لم ينجحوا في نشر أفكارهم. وإجمالا – اللـــهم عندما يسلكون مثل العراقيين والإيرانيين والأصوليين الإســـلاميين الآخـــرين لأننا نرى ظهور أعمال عنيفة في هذه الـــبلدان – يتعلق الأمر بأناس لهم استعداد للتعاون مع الآخرين. مـــع الذين يعلمون ان الإيمان الديني ينبثق من فكرة اللاعنف، وانـــه لمن المفيد ان يكون هنالك تعاون: بين المسيحيين واليهود بشرط ان لا يكونوا هم كذلك أصوليين.

سؤال: إذن تريد أن تقول أن الرؤية السياسية الليبرالية بالضرورة تسير معا الدين؟

جواب: لا اطـــرح الأمور بهذه الصورة. اعتقد أن الليبرالية يمكن ان تـــستغني عن الدين، ولكن يجب، بكل بداهة، ان تتعاون مع الجمـــيع. بالتأكيد، المشكل، انه إلى حد الآن، وتقريبا جميع الـــناس تأثـــروا بـــشكل عمـــيق بالماركسية. ومع سقوط الماركسية، فان الأمل في تجسيد وتحقيق الاشتراكية قد انتهى وضاع، الا انه بقيت فكرة تم تعليمها وتحفيظها وتلقينها منذ زمن طويل في المدارس، وهي ان الناس جميعا لا يرغبون ولا يبحـــثون الا عـــن المال والذهب والمواد الأولية، وان الناس جمـــيعا أنانيون ويريدون ان يصبحوا أغنياء. وبحسب التأويل الماركـــسي للـــتاريخ، فـــان غايـــة كل فرد هو ربح المال، والحـــصول على أشياء جيدة، وامتلاك أسلحة وسلطة. هذه النظرة للتاريخ المجردة من كل أمل، لا تترك لنا من الميراث إلا أنانـــية قانطة في تصور الأشياء الإنسانية، وفكرة أن الأشياء كانت بهذه الصورة وستبقى كذلك دائما.

سؤال: ولكـــنه أيضا ليس من السهل مساندة ان خطر العنف يجد أصله فقط في التصور الماركسي للتاريخ وفي الأزمة التي يمر بها؟

جواب: هـــنالك مجمـــوعة من العوامل. هذا التأويل الوقح، الخاص بالتعاليم الماركسية السابقة، تضاف إلى مظاهر العنف القائمة في المجتمع. يمكن لنا ان نتصور بسهولة الأثر الذي يحدثه كل هـــذا علـــى الشباب. اعتقد انه في ألمانيا يمكن ان نميز ثلاث مراحل شكلت قاعدة التصور الحالي للتاريخ. المرحلة الأولى هي المرحلة الوطنية، التي أرادت ان تجعل من ألمانيا امة متفوقة علـــى كل أمم العالم وان تحتل المكانة الأعلى التي تعود إليها بحكـــم القانـــون. نجد هذه الفكرة منذ هيغل الى غاية هتلر. وبعد هتلر، تبدأ المرحلة الثانية، مرحلة التأويل الماركسي. ثم تـــأتي المرحلة الثالثة، مرحلة التأويل الوقح. والشيء نفسه في المـــرحلة الـــتي امتدت من هيغل الى هتلر، نعلم الأطفال في المـــدارس على أن ألمانيا يجب ان تهيمن على العالم، ونعلم مع الأســـف أن العـــالم كان دائما محكوما بالسلطة والمال وانه ســـيكون كـــذلك دائمـــا. انه لأمر عبثي. لان العكس هو الـــصحيح يكفي النظر إلى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية حـــتى نتأكد من ان 000 800 شخص ماتوا من اجل حرية الملونين.

سؤال: يظهـــر الـــيوم إن الخطـــر الكبير للعنف والحرب يأتي من الوطنـــية. كـــيف تنظر إلى التطلعات المتنامية للشعوب في إقامـــة دولها المستقلة، والتي نشاهدها حتى في أوروبا؟ هل تـــرى ذلك كخطر كانـــزلاق وتدهور للحضارة وتوجه

نحو خطر الحرب، ام انك تراه حق للشعوب المتجانسة في لغتها وانتسابها القبلي – الاثني وديانتها، في أن تكون لها دولة؟

جواب: المسالة الأساسية انه في عالم مكتظ كعالمنا، كل المشاكل المطروحة من قبل الوطنيات – التي يجب معالجتها حالة بحالة وفي كل تعقدها – يجب اعتبارها خطيرة. وفي هذه الحالة، فان فكرة دولة القانون هي المعرضة للخطر. وقبل كل شيء نقول، يجب حماية الأقليات، مع أننا لا نتحدث عنها دائما، حسب رأيي، في الحوار الأوربي حول الوطنيات، بالرغم من ان كل الأسئلة السياسية للوطنيات يكمن هنا. وفكرة الدولة – الأمة ذاتها مستحيلة التحقيق إذا لم نقبل بهذا المبدأ. ما علينا إلا ان نفكر ان أوربا ما هي إلا نتيجة للهجرات العرضية التي جاءت من آسيا، من اجل فهم هذه الحقيقة. أوربا هي شبه جزيرة آسيا التي توجهت إليها شعوب وأقوام لأسباب مختلفة، وعندما وصلوا إلى الأطلنطي، انقسموا، واختلطت بعد ذلك المجموعات المختلفة، وهو ما أدى إلى أن كل البلدان الاوربية بها أقليات ما عدا ألمانيا. لهذا السبب تبقى النقطة الأساسية هي حمايتهم. هذه هي الزاوية التي يجب أن تعالج به هذه المسالة. من غير المعقول أن تكون لكل الأقليات دولها. يجب وضع سياسات حماية، تستجيب لمتطلبات كل أقلية من الأقليات، خاصة في ما يتعلق بالتربية واللغة والدين.



خامسا

لنرفض التاريخانية،
كي يصبح المستقبل مفتوحا(*)

سؤال: لقـــد أولــيت دومـــا أهمية كبيرة لمفهوم التاريخ، ولكن هجـــومك على التاريخانية L'Historicisme[1] كان عنيفا بـــشكل خاص. يعد هذا احد الأسباب التي تفسر انه في مرحلة من المراحل وفي بعض الأوساط الفكرية والثقافية، مثل ايطاليا بعد الحرب وكذلك في الستينيات والسبعينيات، كنت اقل ترحيبا هنا، مع بعض الاستثناءات. فعلى سبيل المـــثال إنـــني عندما قرأت بعض نصوصك في شبابي كنت معجـــبا ببعض أطروحاتك ولكن كنت انفر من مناهضتك للتاريخانـــية. فـــنقد الأنظمة الشمولية والطفيلية تبدو لي مقنعة، ولكن لم استطع تحمل انتقاداتك المروعة للتاريخانية أو بالأصـــح مآخـــذك المروعة للتاريخانية واكثر من هذا للماركـــسية. قبل كل شيء، كنت أقول في نفسي، يمكن كثيرا ان نكون تاريخانيين وديمقراطيين.

(*) ترجمة د. الزواوي بغوره.

(1) التاريخانـــية: تفـــيد معـــاني كثيرة منها: مرحلة في كتابة التاريخ في المانيا مثلتها اعمال "رانـــك". كمـــا تعني ان السياق التاريخي هو المحدد للفكر، وهو ما ذهب اليه ارنست تـــرولتش. ولقد استعملها كارل بوبر بمعنى ان التاريخ عبارة عن تطور لعملية معروفة سلفا، تسمح بتحديد المستقبل. وتعتبر الماركسية في نظره مثالا نموذجيا للتارخيانية.

جواب: التاريخانـــية خطـــأ مــــن أقصاها إلى أقصاها. يرى التاريخاني الـــتاريخ مـــثل مجـــرى الماء، مثل النهر الجاري، ويعتقد انه يـــستطيع أن يـــتوقع أين يمر الماء. يعتقد التاريخاني انه أكثر ذكاء، انه يرى الماء ويتصور أو يتخيل انه بإمكانه أن يتكهن بالمـــستقبل. هـــذا الموقف، على المستوى الأخلاقي، خاطئ كلـــية. بإمكانـــنا ان نـــدرس التاريخ كما نشاء، لكن هذه الفكـــرة الخاصـــة بالنهر ليست أكثر من مجاز ولا علاقة لها بالواقـــع وبالحقيقة. يمكن ان ندرس ما مضى، لكن ما مضى انتهى، وانطلاقا من هنا، فاننا لسنا في المستوى الذي يسمح لـــنا بالتنبؤ باي شيء كان وبالتالي نتابع الاتجاه، علينا فقط وببساطة أن نتحرك وان نحاول جعل الأشياء أفضل وأحسن. فاللحظة الحاضرة هي اللحظة التي انتهى فيها التاريخ، وليس بمقـــدورنا ان ننظر الى المستقبل ونحن نعتقد انه بإمكاننا أن نـــتكهن بـــه بفضل المجرى او الاتجاه. لا يمكن لنا ان نقول: كنت اعرف أن المجرى سيمر من هنا.

سؤال: صـــحيح إن الأشخاص الذين يقولون أو يصرحون: << كـــنت اعـــرف سلفا بان هذا سينتهي كذلك >> غير مرغوب فيهم. ولكن في الوقت نفسه كنت دائما أتساءل وانأ اقرأ سيرتك الذاتية وكذلك منذ بداية حوارنا، عندما التقـــيت مـــع الاخوة "ايسلر Eisler" وكان عمرك سبعة عـــشرة سنة، ما هو الأثر وأنت ترى اليوم أن الكثير من الأحداث تسوغ نقدك الذي شكلته منذ فترة طويلة، لقد قدمت نقدا جذريا للشيوعية وأنت كنت تقريبا شابا. منذ عقـــود كـــان بإمكانك أن تقول: معي الحق وسيكتشفون

ذلك عاجلا أم آجلا. واليوم أمام أحداث الأشهر الأخيرة ألـــيس لديك الرغبة في أن تقول بدورك: <<كنت اعرف ان النهر سيمر من هنا؟>>

جواب: إنـــني ســـعيد لان الأشـــياء حدثت كذلك، ولكن لا اشعر بالـــسعادة لأنـــني استطعت أن اعرف طوال هذا الوقت أين يكمن الخلل. لا يهم. يجب الآن التفكير فيما يجب فعله، وان نـــبحث عن ما هو أفضل وعن ما هو واجبنا. فما فات قد فات. يمكننا بالتأكيد أن نستخلص العبر والدروس، ولكن لا يجب ان نقوم بإسقاطات من اجل استباق المستقبل. لان هذا لـــه علاقـــة بالانحطاط الرهيب للفن. أريد أن أقول ان كل الذين رؤوا الآثار الفنية الكبرى في الماضي، مثل آثار "مايكل انجلو Michel-Ange"[1]، سيعتبرون أن الفن في حالة تدهور وانحطـــاط. وانـــه لمن البديهي أن مايكل انجلو كان وسيبقى الأعظم ولا يجب أن ننتظر ما يشبهه. ولكن هنالك انحطاط وتدهـــور، هذا مؤكد، فلماذا؟ لان كل الفنانين يحلقون من حـــوله، ويحاولون ان يصبحوا رقم واحد في المستقبل. انهم يسمعون، بكيفية ما، التاريخانيين الذين يتحدثون عما سيقع في المـــستقبل، ويحاولون متابعة الاتجاه أو المجرى بدلا من أن ينتجوا أعمالا قيمة في الوقت الحاضر. والأكثر من هذا إنهم مهتمون بأنفسهم أكثر من اهتمامهم بنوعية عملهم. وأيضا إنهـــم يـــصغون للأنبـــياء السيئين وللفلاسفة السيئين الذين يحاولـــون التكهن بالمستقبل. الكل يجتهد لكي يكون سابقا

---

(1) مايكـــل انجلـــو: (1475 - 1564)، رســـام ونحات ومهندس ايطالي، من اشهر اعماله: لوحة يوم القيامة، وكاتدرائية القديس بطرس.

لــزمانه، في حــين لا احد يستطيع ان يتنبأ بالمستقبل لان لا احــد يعرف المستقبل. انظر إلى ماركس على سبيل المثال: كان يعتقد ان كل الآلات سيكون لها محرك بخاري وان كل المحركات ستصبح كبيرة شيئا فشيئا. إن آلة مثل آلة حلاقتي الكهربائية لم تكن لتخطر بباله. والظاهر أننا نسير نحو آلات صــغيرة شــيئا فــشيئا وليس إلى آلات كبيرة وأنها موجهة لاســتعمالاتنا الشخــصية. كــان ماركس يرى من منظور الإنتاج فيما يتعلق بالأشياء المادية، في حين أن التطور حدث مــن مــنظور الاستهلاك. إن الثورة الكبيرة التي لم يستطع مــاركس إدراكها جيدا ويفهمها بشكل جيد هي السكك الحديدية التي سمحت للناس أن يتحركوا ويتنقلوا. و لم تصنع الــسكك الحديدية والقطارات من اجل الإنتاج، فالعربات الأولى لم تــستخدم لــشحن البضائع او السلع ولكن لنقل الأشخاص. إننا نتحدث عن "العربة (chariots) coaches" وهــنا ما زلنا نسميها كذلك أي منذ ان كانت تجر بالخيول الــتي تم تعويــضها بالمحركات البخارية التي سمحت بتشكيل قطارات تتكون من عربات عديدة ومن تخفيض أسعار النقل. إنهــا خدمــة موجهة إلى الأشخاص الذين يرغبون في زيارة أشخاص آخرين ومدن أخرى. هل تفهم ما أريد قوله؟ هذه كانــت إحدى اكبر الثورات التي لم تحدث سابقا وقبل هذا الــتاريخ. ولكن ماركس لم يراها كذلك، أي لم يراها على انها ثورة.

ثم لاحقا، فان هذه العملية قد استمرت مع "الثورة الفوردية la révoltions fordienne" وذلك باقتراح من "هنري فورد

"Henri Ford" لـــسيارات ملائمة للعمال وليس فقط لأصحاب الملايـــين. وإذا كنت أتحدث عن كل هذا، فلان الأمر يتعلق بـــثورات لا احد يستطيع أن يتوقعها. وبالتأكيد لم يتوقعها مـــاركس. وكـــذلك الـــيوم لا احـــد يستطيع أن يعرف الاكتـــشاف الكبير القادم. لقد كانت إحداها هي التلفزة، التي تحولت إلى شيء مرعب في الوقت الذي كان من الممكن ان تكون نعمة.

سؤال: انك فعلا لا تستطيع ان تتحملها ...

جواب: إنني لا املكها ولا أريد ان تكون في بيتي.

سؤال: لقـــد وصـــلنا إلى طرح موضوع الثورات التكنولوجية، وذلـــك من اجل ان نقول إن هدف التاريخانيين هو معرفة مجرى النهر، فكرة لا أساس لها من الصحة.

جواب: إنهـــا ببـــساطة فكرة غبية، لانها محاولة لاستكشاف تاريخ المستقبل في حين ان خاصية التاريخ انه يضعنا دائما امام ثورة غير منتظرة وغير متوقعة مثل ثورة الإلكترونيك.

سؤال: ولكـــن ألـــيس من الإنساني جدا، أن نطرح مشكلة معنى التاريخ أو بتعبير آخر أن نطرح مسالة فلسفة التاريخ. إذا كـــان العلم يسمح بالتساؤل عن أبعاد الكون، فلماذا لا نطرح مشكلة معنى التاريخ، وإذا كان يتطور ففي أي اتجاه يسير؟

جواب: اعتقد أن هذا خطأ فكري. فلا حاجة لنا لمعنى التاريخ. يمكن لـــنا أن نعجـــب بالتاريخ لأنه غني بالأحداث التي تستحق الإعجـــاب وبأشخاص رائعين. ويمكن أن يعلمنا ما يجب ان نخاف منه. ومن بين الأشياء التي يجب أن نخاف منها، هنالك

ما تسميه بـــ "معنى التاريخ" لانه يزج بنا دائما في اتجاهات خاطئة.

سؤال: **في روســيا، يــتحدثون كثيرا عن ما يسمونه بــ <<نقطة الدخـــول Le point d'entrer>> الذي يبين بداية الخطأ <<erreur>>. هـــذا الحوار يظهر انه تجاوزته الأحداث، ولكـــن يـــتعلق الأمر بتعيين اللحظة الأولية لعملية سلبية بغرض إيجاد <<نقطة الخروج point de sortie>>. أريد ان اعـــرف رأيك في هذا الموضوع، على الأقل لأنك من الذين يضعون أصل المشكل في النقطة البعيدة في الزمن وفي أقصى نقطة من الزمن.**

جواب: كمـــا سبق وان قلت لك، إن الماركسية خطا وعمليا كانت خطـــا منذ البداية، لأنه منذ البداية، كانت الفكرة الماركسية تقتضي البحث عن العدو وليس البحث عن الأصدقاء الذين من الممكن أن يساعدوا في إيجاد حل لمشاكل الإنسانية. أنت وأنـــا، على سبيل المثال، مهتمون بفكرة التعاون من اجل ان نـــساعد الناس، حتى يستطيع النوع الإنساني أن يجد حلولا جـــيدة لمـــشاكله الأساسية. ماركس كان يبحث عن العدو الذي يقضي عليه، وهكذا ابتدع الرأسمالية كعدو يجب قتله. لـــيس هنالك نقطة دخول يجب البحث عنها في مكان آخر. الخطـــأ كان هنا ومنذ البداية. انه الكره بدلا من المسؤولية. كـــل الذين لهم مطامح كبيرة ويكرهون العالم لا يستطيعون تحقيقها، يرتكبون هذا الخطأ الأساسي. وماركس ارتكبه منذ البداية وذلك بجعله الرأسمالية، العدو الذي يجب القضاء عليه. وإذا كنت تعتقد انه كان من الممكن ان يمر كل شيء بشكل

جـــيد وانه في مرحلة لاحقة من العملية ستتم الأشياء بطريقة مغايرة، فانك تخدعهم. لا شيء هناك.

سؤال: اعرف انه بالنسبة إليك، الخطأ الأساسي لماركس يعود إلى أصـــل تفكيره ذاته. ولكنني أتساءل إذا كنا لا نستطيع أن نعود إلى ابعد من ذلك إلى أفلاطون وأرسطو.

جواب: نعـــم صحيح من الممكن ان نذهب بعيدا الى قبل ماركس. لقد عبرت عن رأيي في التاريخانية، ويمكن ان نعود إلى أصول النظـــرة" الغائـــية للتاريخ Téléologique" والى "الشمولية Totalitarisme"[1] والى "أسطورة القدر Mythe du destin "، ولكـــن هـــذا يؤدي بنا مباشرة إلى ما كتبته في "المجتمع المفتوح وأعداؤه".

سؤال: إذن لـــندعو القـــراء إلى كتابك هذا بدلا من الغوص في التاريخ البعيد، لنعد إلى الأسئلة الحالية: مثلا الديمقراطية. الشيوعية سقطت وتهاوت وهنالك الآن إجماع واسع حول هذه الفكرة. ولكن ومع الإقرار بالمبادئ المجردة الأساسية للحـــرية التي نتفق حولها، فان للديمقراطية مشاكل عديدة وتناقضات وصعوبات جمة. وهنالك مفهوم يتكرر دائما في أعمالك انه مفهوم المفارقات الديمقراطية، فماذا يعني؟

جواب: انـــه سؤال هام جدا في وقتنا الحاضر. فإذا ما أخذنا بالترجمة الحـــرفية لكلمـــة الديمقـــراطية في اليونان، فإنها تعني سلطة الـــشعب، وهذا مفهوم يبعد بعض الشيء النقطة الأساسية، لان المشكل الحقيقي للديمقراطية لا يطرح هنا. انه يتعلق بمنع

---

(1) الشمولية او الديكتاتورية المطلقة، نظام سياسي ارتبط بالستالينية والفاشية والنازية.

إقامة الديكتاتورية أو بتعبير آخر، منع انعدام الحرية، أو منع قيام نمط من السلطة ينفي دولة قانون. هذا هو المهم. وفي الحقيقة، إن اليونانيين كانوا قد فهموا ومنذ القدم، ان تحقيق الديمقراطية لا يعني وضع الشعب في السلطة، وإنما العمل بقوة على اجتناب خطر الطغيان. من اجل هذا ادخلوا فكرة "الإبعاد L'Ostracisme "خلال ثمانين سنة. و لم يدخلوها إلا لأنهم كانوا خائفين من أن يبرز طاغية يتمتع بشعبية كبيرة، أو ديكتاتور شعبي وديماغوجي وشعبوي، كما نقول اليوم، بمعنى شخص يمكن أن يصبح أكثر شعبية ويحتكر السلطة بسبب الأغلبية. فكرة الإبعاد، تسمح باستبعاد كل شخص من الوطن، يمكن أن يصبح شعبيا بشكل كبير. هذه الفكرة لا تطرح كما تطرح فكرة من يدان بسبب ارتكابه خطا او جرم، او الذي يتم محاكمته بسبب فعل من الأفعال، إن الأمر يتعلق بضرورة التحفظ والاحتياط. إن هذه الطريقة تستبعد أن يكون في الوطن شخص له شعبية كبيرة. انه يكفي قراءة الخطاب الجنائزي لـ "بركليس"[(1)]، الذي كتب بمناسبة موت "ثيوسديد"[(2)]، من اجل أن نفهم ماذا يعني هذا الاحتياط. وكما قال ذلك ذات مرة "شيرشل"[(3)]، في جملة أصبحت مشهورة، الديمقراطية هي أسوأ أشكال الحكم باستثناء جميع الأشكال الأخرى التي هي أسوا منها.

(1) بريكليس: (495 – 425 ق.م)، سياسي وخطيب وقائد يوناني محنك.

(2) ثيوسديد: (460 – 395 ق.م) مؤرخ يوناني اشتهر بكتابه: تاريخ حرب البلوبونيز.

(3) ونستنون تشرسل: (1874 – 1965) زعيم سياسي ورئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية.

الديمقراطية في ذاتها لاشيء مفيد فيها وكل ما هو مفيد يأتي من جهات أخرى، لا منها. إنها ليست أكثر من وسيلة لتجنب الطغيان، لا أكثر ولا اقل. بالطبع، تعني الديمقراطية أن الجميع متساوون أمام القانون وان لا احد يجرّم أو يدان ما لم تثبت عليه الأدلة، الخ. هذه المبادئ الأساسية جزء لا يتجزأ من دولة القانون. ولكن لا وجود في الديمقراطية، لمبدأ يجعل للأغلبية الحق، لان الأغلبية قد ترتكب أخطاء فادحة كأن تنصب طاغية، وان تنتخب طاغية، كما يحدث دائما. لم يحدث في ألمانيا أن حصل هتلر على الأغلبية، لكن في النمسا تم اختياره بنسبة أربعة وتسعين في المائة من نسبة الناخبين.

سؤالا: يمكن لنا إذن أن نقول أن الديمقراطية هي كيفية لحل النزاع السياسي وذلك بتجنب الطغيان والديكتاتورية. ولكن هذا النزاع، في وقتنا الحاضر، ألا يعني ذلك أننا نجد أنفسنا دائما أمام يسار ويمين؟

جواب: سبق لي وان أجبت على هذا السؤال.

سؤال: لقد أجبت بأنه، وبحسب رأيك، أن الوقت قد حان لتجاوز النزاع الأيديولوجي ولكنك لم تتحدث عن دور اليمين واليسار، الآن مادمنا نعتبر انه عمليا قد انتهت المواجهة الإيديولوجية بين الشيوعية ومناهضة الشيوعية، فما هو رأيك؟

جواب: اعتقد أن جوابي على هذا السؤال متضمن فيما قلته. الوظيفة الأولية لليسار هي مساندة المعوزين. هذا المبدأ مازال مقبولا. لكن ما هو مزعج حقا، هو اندفاع اليسار في طريق خاطئ،

وإصراره عليه لأسباب أيديولوجية، ويتمثل ذلك في اعتباره المعـــوزين بمثابة بروليتاريا او عمال، حتى عندما كفوا عن أن يكونوا كذلك.

سؤال: وعلـــيه، ومـــن اجـــل ان نختم، ما هي مهمات اليسار في المستقبل القريب؟

جواب: يجـــب أن ننظر من حولنا وان نسال من هم المعوزون. إنني أســـاند وادعم بان الفئة الوحيدة التي هي في الوقت الحاضر، يمكـــن اعتبارها كذلك، هم الأطفال. وحتى أكون واضحا جـــدا، أقـــول إن الراشـــدين يرتكبون جرائمهم أمام أعين الأطفـــال. هـــذه هي الوضعية التي استحدثناها. أي كل ما يجعـــل مـــن الانحـــراف والإجرام، يتخذ صبغة المثل وقيمة النموذج أمام الأطفال،. نحن بصدد نسيان بان كل الحيوانات تـــتعلم بالمثل، ومن خلال ملاحظة ما يجري في محيطها كي تفعل نفس الشيء. لنتحرك في الوقت المناسب.

القسم الثاني

الدراسات

سادسا

ملاحظات حول الدولة الديمقراطية بين النظرية والتطبيق(*)

اولا. هـــل هنالك علاقة بين الآداب والعلم والديمقراطية؟ وجد بأثينا، ابتداء من سنة 530 ق.م.، سوق ليس لها مثيل في مكان آخر: لقـــد كانت سوقا حرة للكتب، ومكانا تباع فيه الكتب المخطوطة، معروضـــة علـــى شكل لفائف من البردي. أول الكتب التي طرحت للبـــيع كانـــت الملحمتين الشعريتين العظيمتين لهوميروس[1]:الإلياذة والأوديسا.

وبحـــسب كتابات ششرون "Ciceron"[2]، فإننا ندين بتسجيل وتدوين أشعار هوميروس إلى طاغية أثينا بيزيسترات "Pisistrate"[3]، إنه هو من بين آخرين الذين أسسوا التمثيليات الدرامية، التي نسميها الـــيوم بالمسرح. وربما، كان اول ناشر لهوميروس، وهو الذي أدخل المـــادة الـــضرورية للكتابة – البردى المصري – واشترى العديد من العبـــيد المتعلمين القادرين على استنساخ أشعار هوميروس. لقد كان

(*) ترجمة د. لخضر مذبوح.

(1) هـــوميروس: (حـــوالي 850 ق.م بحـــسب هيرودوت)، شاعر اغريقي مشهور وصاحب الالياذة والاوديسا.

(2) شيشرون: (106 – 43 ق.م)، خطيب روماني مشهور.

(3) بيزيسترات: (حوالي 600 – 527 ق.م) سياسي وحاكم يوناني، يعتبر آخر الطغاة الاثينين.

بيزيستترات غنيا، وكان يمنح بمناسبة الاحتفالات العامة للأثينيين تمثيليات مسرحية وغيرها من التظاهرات الثقافية. وفيما بعد لعب أثينيون آخرون، مقاولون، دوْر الناشرين.

لقد كانوا منجذبين في هذه المدينة بواقع أن الطلب على أعمال هوميروس، كان طلبا لا ينضب: الجميع يتعلم القراءة مع هذه النصوص، والجميع يقرأ هوميروس، وقريبا سيصبح مؤلفه في نفس الوقت إنجيل وأبجدية أثينا، وبسرعة فائقة نشرت كتب أخرى بدورها.

لا يجب أن ننسى أبدا أنه بدون سوق للكتاب، لا يمكن أن يكون هناك نشر. إن وجود مخطوط (أو كتاب مطبوع اليوم) في مكتبة لا يمكن أن يعوض عرضه في السوق. وفي أوربا لمدة طويلة (أعتقد، ما يقارب القرنين) لم توجد سوق للكتاب إلا في أثينا، لقد كانت مدينتي قرنيا وطيبة أول مدينتين تحذوان حذوها.

لقد كان هناك طبعا شعراء من قبل، وحتى كتابات، لكن لم تتطور الآداب إلا في أثينا، (لأن هذا يفترض وجود مؤسسة نشر) وأنه ازداد عدد الكتاب والمؤرخين وعلماء السياسة والفلاسفة والعلماء والرياضيون.

القليل فقط من بينه، مثل ثيوسيدث ولد هناك، لكنهم جميعا أجانب عن هذه المدينة، التي مارست عليهم جاذبية لا تقاوم. كان من بين الكتاب الذين وفدوا على أثينا، والذين نشروا كتبهم فيها، العالم والفيلسوف "أنكساغوراس"[1]، و"هيرودوت"[2] الأصغر عنه

(1) انكساغواس: (500 – 438 ق.م)، فيلسوف يوناني، قال بالعقل الكلي.

(2) هيرودوت: (484 – 425) مؤرخ يوناني اشتهر بكتابه تاريخ هيرودوت الذي يصف فيه أحوال البلاد والأشخاص التي لاقاها في ترحاله حول حوض البحر الابيض المتوسط.

ببـــضع سنوات منه، وكان أول وأعظم مؤرخ. لقد وفد كلاهما من آسيا الصغرى، ولجأ إلى أثينا لأسباب سياسية. أعتقد أن هيرودوت لم يكتب مؤلفه الكبير بنية نشره، عكس أنكساغوراس في كتابه "حول تاريخ العلم الطبيعي"، الذي كان متواضعا ومحدودا.

ثانـــيا. مـــن أول كتاب منشور في أوربا إلى ثورة غوتنبرغ "Gutenberg"[1]: الاعجـــوبة التي كانت عليها أثينا في القرن الخامس ق م علـــى الصعيد الثقافي، تفسر في جزء أكبر، فيما أعتقد، في خلق ســـوق للكتب، ويفسر أيضا الديمقراطية الأثينية. وبديهي جدا، فان فرضـــية طـــرد الطاغية "هيبياس" من أثينا سنة 510 ق م، وتأسيس الديمقـــراطية، حـــدثان مرتبطان بتأسيس سوق الكتاب، ليس قابلين للبرهان، لكن الكثير من العناصر تجعلنا نعتقد أنهما كذلك.

فـــن القراءة والكتابة اللذين انتشرا بسرعة، والشعبية الكبيرة لهـــوميروس، وعلـــى محـــيط الكتاب هنالك المسرحيين الأثينيين والرســـامين والـــنحاتين، والأفكـــار العديدة التي كانت تناقش، والـــتطور الفكري، كلها وقائع لا يمكن إنكارها. لكن حتى ولو سلّمنا أن تأسيس الديمقراطية، استطاع أن يكون مستقلا عن هذه الاشـــياء، الـــتي كانـــت بدون شك متأثرة بخلق سوق الكتاب، والنجاح الذي عرفته هذه الديمقراطية الاثينية الشابة خلال حروب التحريـــر ضـــد الإمبراطورية الفارسية العظمى، هي بكل تأكيد مرتبطة بهذا السوق.

لا يمكـــن تفـــسيرها إلا بالوعي الجديد لدى الأثينيين بذواتهم، الـــذي خوّل للأثينيين التراث الثقافي والتربوي الخارق للعادة واللذين

---

(1) غوتنـــبرغ: (1400 – 1468) مكتـــشف الطباعة، التي تعد ثورة في عالم الثقافة والكتاب على وجه التحديد.

تـــشكلا كذلك بواسطة حماستهم وتذوقهم للجمال، والوضوح في الفن والشعر.

وممـــا يثير الفضول دائما، أنه عند إختراع "غوتنبرغ" والتوسيع الكبير لسوق الكتاب الذي تبعه. قاد هذا كله إلى ثورة ثقافية مماثلة: المـــذهب الانـــساني، مـــع إعادة إحياء الآداب القديمة، كل الفنون ازدهـــرت، ومـــولد علـــم طبيعي جديد بإنجلترا، قاد الاصلاح إلى ثـــورتين: ثورة 1648 – 1649 الدموية، وثورة 1688 السلمية، التي ســـجلت بداية التطور العادي للبرلمان الانجليزي نحو الديمقراطية. في هذه الحالة فإن الصلة ظاهرة للعيان بوضوح.

ثالـــثا. انتـــصارات ومساوئ الديمقراطية الاثينية: تعود المعجزة الأثينـــية إلى الأحداث المدهشة، الثقافية والسياسية والعسكرية للقرن الخـــامس قبل الميلاد، وإلى بداية القرن الرابع ق م، اللذين أعقبا خلق ســـوق الكـــتاب. وتصب هذه الاحداث في المستوى نفسه للتطور الـــسريع لآداب، وهي في نفس الوقت، منقطعة النظير ومثالية. هذه الاحـــداث تتضمن حربين، دامتا كلتيهما ثلاثين سنة تقريبا. خلال الحرب الأولى تحطمت أثينا، لكنها أنتصرت، وفي الثانية منيت بهزيمة ساحقة. وهذا عرض كرونولوجي مختصر للوقائع الأكثر أهمية: 507: تأســـيس الديمقـــراطية الأثينية. 493: التسلح وإنشاء الاسطول تحت قـــيادة "ثيمـــستكول Themistocle"[1]. 409: "معـــركة المارتون Bataille de Marathon". 480: أصبحت أثينا مهجورة ومحطمة من قـــبل الفرس. المقاومة تعتمد أساسا على الأسطول. معركة "سلامون Salamine". 479: معـــركة "بلاتـــاس Platees وميكال Mycale".

(1) ثيمستكول: (518 – 462)، سياسي واستراتيجي اثيني، كان له الدور الحاسم في تحقيق النصر في الحرب الميدية الثانية.

يطلـــب اليونانيون المساعدة من الأيونين المهددين في آسيا الصغرى، وهـــو مـــا ادى إلى إنشاء الرابطة البحرية بين أثينا وديلوس، وإلى ما يـــسمى "إمبراطورية بحر إيجه" وإعادة بناء أثينا. إبتداء من 462: يبدأ عصر بيريكليس. الأكروبول: معبد "البرتينون Parthenon". وابتداء مـــن 431: تـــبدء حرب "البيليبونيز". 429: مرض الطاعون، يموت بيريكليس بالطاعون. الحرب تتسع وتصبح أكثر دموية.413: كارثة بـــصقلية: إبادة أسطول وجيش أثينا.411: انهيار الديمقراطية الأثينية. 404: انتـــصار اســـبرطة علـــى أثينا وإقامة حكومة عميلة خاضعة لأســـبرطة، وخلال ثمانية أشهر، تقتل هذه الحكومة الارهابية المعادية للديمقراطية، عددا من الأثينيين يفوق العدد الذي شهدته خلال العشر سنوات الأخيرة من الحرب الأكثر ضراوة وهكذا ينتهي تاريخ الحرب البيلوبونيـــزية علـــى العموم. وهو ما يعطي بسهولة الانطباع بنهاية الديمقـــراطية الأثينـــية، لكـــن هذا الإنطباع خاطئ، لانها لم تكن النهاية.

فخلال ثمانية أشهر هزم الطغاة الثلاثون، من قبل مجموعة من الأثينيين الديمقراطيين خلال معركة "يري Pirée" ووقعت معاهدة ســـلام بـــين اسبرطة والديمقراطية الأثينية. لقد نجت إذن أثينا من أهوال حرب مرعبة ومن خيانة بعض المواطنين المشهورين. وابتداء مـــن هـــذا الـــتاريخ، ولمـــدة تزيد عن نصف قرن، اعتبر أعداء الديمقـــراطية الاثينية أنها لا تهزم. غير أنها مع ذلك، اقترفت أخطاء رهيبة، وليس فقط أخطاء تكتيكية او استراتيجية، وانما جرائم ضد الانسانية، مثل تحطيم جريزة "ميلوس"، التي هاجمتها أثينا على ما يـــبدو دون أن يكون هناك استفزاز مباشر، لقد قتل كل الرجال والنساء والاطفال، وتم بيعهم عبيدا.

مـــا قيمة الحكم الظالم ضد سقراط(خلال محاكمة سياسية كان فيها المتَّهم (بكسر الهاء) رئيس حزب إلى جانب هذه الجريمة المرعبة؟ ثيوسيدس الجنرال الأثيني، يصف هذا الحادث بشكل دقيق، لما كان: القـــرار الوقح، الصلف، الذي لا يغتفر، لأغلبية كانت تعرف جيدا ماذا تفعل والتي كان يجب معاقبتها على هذا الخطأ، ولقد كان هناك العديد من القضايا المشابهة لهذه.

هذه القضايا لا عذر فيها، لكن عن طريق الصدفة، كانت هناك قرارات أخرى نقلها إلينا ثيوسيدس، وهكذا "ميتلان Mytilene" قد نكـــثت ميـــثاق التحالف مع أثينا، وتمردت، ولكنها هزمَت من قبل أثيـــنا. أرسل الأثينيون باخرة بقيادة جنرال مكلف بقتل كل سكان ميتـــيلان، لكـــن في الغد ندم الأثينيون على ذلك، فاستدعيت جمعية شعبية كما وصفها ثيوسيدس. يلقي ديوديت خطابا يدعو فيه للرأفة والحلـــم، التصويت لم يمنحه إلا أغلبية صغيرة، لكن أرسلت مباشرة باخرة تتعقب الباخرة الأولى، وربان الباخرة، أسرعوا التجذيف ليلا ونهـــارا بـــدون كلـــل، حتى وصلوا في الوقت المناسب لإلغاء الأمر الـــسابق، وهكـــذا نجـــت ميثـــيلين بأعجوبة من الفناء، كما كتب ثيوسيدس.

رابعـــا. لم تكـــن الديمقراطية أبدا حكم الشعب، لا يمكنها ولا يجـــب أن تكون كذلك لقد أدركتم، فيما أعتقد، أن الديمقراطية تثير مـــشكلات ضـــخمة، لقـــد كانـــت في الـــبداية ولازالت الى حد الآن المـــشكلات الأكثـــر أهمـــية، والأكثر صعوبة هي من اي نظام أخلاقـــي. واحدة من هذه المشكلات تثير دائما الغموض، والمأخوذة علـــى أنهـــا مـــسألة أخلاقـــية في حـــين، هـــي ليست إلا مسألة كلمات محضة، وهي التالية: "الديمقراطية" تعني "حكم الشعب" وهذا

يجعـــل الكـــثير من الناس يعتقدون أن هذا المصطلح ضروري لنظرية أشكال الدولة التي نعرفها اليوم في الغرب، بـــ اسم "الديمقراطيات".

أنـــشأ الـــيونان أسمـــاء مخـــتلفة لمختلف أشكال إدارة الدولة، لأنهـــم كانـــوا يريدون التساؤل عن: أشكال الحكومة الممكنة، التي كانـــت جـــيدة او ســـيّئة او أفـــضل أو أسوأ. وميّزوا هكذا، بين خمـــسة أشـــكال مـــن الحكومات، تبعا للصفات الأخلاقية للقادة، واســـتعملت هـــذه الفكرة فيما بعد من قبل أفلاطون، وتحولت إلى النسق التالي:

1 – 2 – **الملكـــية:** حكم رجل واحد خيّر أو طيّب، وشكلها الفاسد هو الطغيان، حكم رجل واحد شرير أو سيّء.

3 – 4 – **الأرســـتقراطية:** حكـــم بعض الرجال الأخيار أو الطيـــبين، شـــكلها الفاســـد هو الأوليغارشية، حكم بعض الرجال الاشرار والسيئين.

5 – **الديمقـــراطية:** حكم الشعب، حكم العدد الأكبر، حكم العامـــة. في هـــذه الحالة بالذات، يقول أفلاطون لا يوجد إلا شكل واحـــد: وهـــو السيئ، لأنه يوجد دائما داخل العامة عدد كبير من السيئين والأشرار.

من المهم جدا بحث الإشكالية التي تضم بالفعل هذا النسق، حتى نـــدرك أن أفلاطون ينطلق من هذا السؤال الذي يبدو ساذجا وهو "إلى مـــن يجب أن تعود قيادة الدولة؟" من يجب أن يحكم؟ نستطيع بكـــل تأكـــيد أن نطرح هذا السؤال في دولة صغيرة مثل الدولة – المديـــنة الأثينـــية، التي يعرف الناس بعضهم بعضا. وزيادة على ذلك نلاحـــظ أنـــه على مستوى ما – بدون شك لاشعوري – يبقى هذا

الـــسؤال الـــيوم في قاعـــدة النقاش السياسي، إن ماركس ولينين[1] وموســـوليني[2] وهتلـــر، وأيضا معظم رجال السياسة الديمقراطيين، فكـــروا بدون كلل في الاجابة على السؤال من يجب أن يحكم؟ لقد كانت إجابة أفلاطون "الأفضل هو الذي يجب أن يحكم" وهي إجابة أخلاقية واضحة. ماركس ولينين قالا "إنهم البروليتاريون الذين يجبوا أن يحكموا"، وليس كما هو الحال الآن الرأسماليون، ويجب أن تكون لهم قيادة الدولة، يجب أن يمارسوا حكما ديكتاتوريا!، في هذه الحالة العنـــصر الأخلاقي مستتر قليلا، لكن من الطبيعي فان القصد موجه نحـــو البروليتاريون الطيبون (الأخيار)، الذين يجب أن يحكموا وليس الرأسماليين الأشرار.

ولـــيس من الضروري ان افصل القول حول هتلر، لان اجابته ببـــساطة تقول: "أنا" ومن الواضح انه مثله مثل سابقيه، كان يفكر أساســـا في الـــسؤال "من يجب أن يحكم". منذ حوالي خمسين عاما اقتـــرحت رفض هذا السؤال وشطبه كلية لانه يتعلق بمشكلة خاطئة، قـــادت إلى حلـــول خاطئة. اذ تبدو هذه الحلول وكأنها أملاها أمر أخلاقـــي، بـــيد أنـــه من وجهة نظر أخلاقية، غير أخلاقي إلى أبعد الحـــدود، لانه يعتبر الخصوم السياسيين، سيئون أخلاقيا وأن الحزب الخـــاص هو الأفضل، وهو ما يقود إلى الكراهية وإلى التشديد على السلطة، عوض الانكباب على تحديدها.

---

(1) فلاديمير ايليتش لينين: (1870 – 1924)، قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفيةو مؤسس المذهب اللينيني السياسي. كان أول رئيس للاتحاد السوفييتي.

(2) بنيتو موسليني: (1883 – 1945)، سياسي ايطالي، مؤسس الحركة الفاشية، تولى حكـــم ايطاليا بوصفه رئيسا للوزراء سنة 1922. في سنة 1939 تحالف مع هتلر وخاض الحرب العالمية الثانية حليفا له.

لأجل هذا أقترح استبدال سؤال افلاطون "من **يجب أن يحكم؟**" "بسؤال آخر مختلف كلية" "هل توجد هناك أشكال **حكومية تسمح** لنا بالتخلص من الحكومة السيئة، وتسبب ضررا للبلاد؟" أ **عتقد أن** هـــذه الأسئلة هي ضمنيا تدخل ضمن قاعدة "الديمقراطيات" وبالتالي فالها مختلفة جدا عن سؤال أفلاطون.

نحـــن الذين نسمى بالديمقراطيين، نعتبر الديكتاتورية أو الطغيان شـــيء ســـيّء أخلاقيا، ليس فقط صعب الاحتمال، لكن أخلاقيا لا يطـــاق، لأنـــه غير مسئول. إن واقع تحملها، يعطينا الشعور بالقيام بـــشيء من الشر، بيد أننا مكرهون على تحملها، هكذا كان موقف المتآمرين الألمان يوم 20 جويلية 1944، لقد حاولوا الإفلات من الفخ الأخلاقـــي الفضيع الذي وقعوا فيه، لحظة تصديقهم الديمقراطي على قانون السلطات المطلقة لمارس 1933.

الديكـــتاتورية تفرض علينا موقف لسنا مسئولين عنه، لكن لا نستطيع على العموم تغييره، إن هذا، لا يطاق إنسانيا، ويتوجب علينا إذن، علـــى المستوى الأخلاقي، التحذير من هذا النوع من المواقف. إن هـــذا هـــو مـــا نحـــاول فعلـــه بفـــضل أشكال الدولة المسماة "ديمقـــراطيات"، وهنا تجد مسوغها الأخلاقي الوحيد. الديمقراطيات ليـــست إذن، ســـيادات شعبية، إنها قبل كل شيء مؤسسات مزودة بوســـائل الـــدفاع ضـــد الديكـــتاتورية، إنها لا تمنح سلطة من نمط ديكتاتوري، جمعا للسلطات، لكنها تجتهد لتحديد سلطة الدولة.

إن الديمقراطية بهذا المعنى، تمكننا من التخلص من الحكومة دون إراقة للدماء، عندما تتخلى هذه الأخيرة عن حقوقها وواجباتها، لكن أيضا عندما نحكم على سياستها بالها جيّدة أم خاطئة. المشكلة ليست إذن هي مشكلة الحكم، ولا معرفة من يحكم، لكنها مشكلة الحكومة

ومعـــرفة كـــيف نحكم. فالأساسي هو أن لا يكون للحكومة سلطة مفرطة، بعبارة أخرى المشكلة هي مشكلة "كيف؟" يتم ادارة الدولة. كان ذلك هو، ضمنيا، لكن محققا، الموقف الذي تضمنه الديمقراطية الأثينية. وهو موقفنا أيضا، أو يجب أن يكون موقفنا.

مهما كانت المجموعة التي نعرفها ونطابقها بالشعب، سواء تعلق الأمر بعسكريين أو موظفين، عمالا ومستخدمين، قساوسة، كتاب، فإنـــنا لا نريد لا سلطتهم ولا هيمنتهم، لا نريد لا الخوف منهم ولا أن نكـــرَه على خوفهم. نريد، ويجب علينا عند الاقتضاء، أن ندافع ضد مزاعمهم، ذلك هو موضوع أشكال حكومتنا الغربية التي سواء نتـــيجة للعادة أو للبس لفظي، اطلق عليها اسم الديمقراطيات، والتي تعني الدفاع عن الحرية الفردية ضد كل أشكال السلطة، ماعدا سلطة واحدة: السيادة، سلطة القانون.

خامسا. النقطة الأساسية: الحكومة، يجب أن نكون قادرين على خلعهـــا مـــن دون إراقة للدماء: وجهة نظري هي إذن كالآتي: أهم شـــيء في كل أشكال الحكومة، هو قدرتنا على اقالة الحكومة دون إراقـــة الدماء، قبل أن تتولى حكومة أخرى زمام الحكم، وليس مهما جـــدا حـــسب رأيي كيف تتم هذه الاقالة - بواسطة انتخابات أم بواسطة قرار برلماني - مادام الأمر يتعلق بقرار أغلبية الناخبين، وأيضا قضاة المحكمة الدستورية، لا يوجد هناك حدث بيّن بوضوح كالطابع الديمقراطي للولايات المتحدة، من حيث ان استقالة الرئيس ريتشارد نيكسون، كانت في الواقع عزلا.

وفـــيما يتعلق بموضوع تغيير الحكومة، هذه السلطة السلبية، أي الـــتهديد بالعزل هو أهم شيء. وبالمقارنة مع السلطة الايجابية لتعيين حكـــومة، أو رئيسها، تكتسي أهمية ثانوية نسبيا. لكن هذا ليس هو

الـــرأي الشائع، وبوجه ما، فإن الحالة المبالغ فيها في تعيين جديد هي خطـــيرة: يمكن أن تفسر كصك على بياض ممنوح من قبل الناخبين، كـــشرعية باســـم الشعب، ومن خلال "إرادة الشعب". بيد أنه ماذا نعرف وماذا يعرف الشعب عن الخطأ، وحتى الجريمة، التي قد تتهم بها الحكومة التي اختارها.

نستطيع الحكم على حكومة أو على سياسة حكومة بعد فوات الأوان، عندئذ من الممكن أن نمنحها تزكيتنا، وإذن نعيد انتخاب هذه الحكـــومة. نستطيع أيضا أن نمنحها ثقتنا مسبقا، لكن في هذه الحالة نحـــن لا نعـــرف شيئا، ولا نستطيع معرفة أي شيء، نحن لا نعرف الحكـــومة، لا نـــستطيع إذن أن نفترض أنها ستسيء استعمال ثقتنا، ونقـــلا عما كتبه ثيوسيدس، فإن بيريكليس قد عبّر بكل بساطة عن هـــذه الفكـــرة "مـــع ان هناك قليل من الناس القادرون على تصور مـــشروع سياسي، فإننا مع ذلك متساوون في الحكم عليه". إن هذه الـــصياغة الوجيزة، تبدو لي أساسية، ونسجل أنها ترفض مقولة حكم الـــشعب، وحتى مقولة مبادرة الشعب، وعوضتها بفكرة مختلفة كلية هي: المحاكمة بواسطة الشعب.

إن بيريكلـــيس فـــسّر باختـــصار شديد في هذا المقطع لماذا لا يـــستطيع الـــشعب أن يحكم حتى في غياب أية صعوبة خاصة: لأن الأفكـــار الجديـــدة على الخصوص لا يمكن أن تكون إلا عمل أفراد معـــزولين، وحتى لو أمكن توضيحها وتحسينها بالتعاون مع الآخرين لكـــن فيما بعد، خصوصا إن هم استطاعوا أن يقوموا بتجربة حول النـــتائج التي قادت إليها هذه الافكار - إذا كانت جيدة أم سيئة - وهـــذا التقديـــر أو التقويم، بنعم أم لا، فإن هذه القرارات يمكن أن تكون في دائرة إختصاص هيئة انتخابية واسعة.

ولأجـــل هذا، فإن عبارة مثل "المبادرة الشعبية" عبارة مضللة، وتنتمـــي إلى الدعايـــة، فالأمــــر يتعلق على العموم بمبادرة بعض من الـــناس، والـــتي ستكون في جميع الحالات خاضعة للتقدير وللتقويم الـــنقدي للـــشعب. فالمهم إذن، في مثل هذه الحالات، معرفة ما إذا كانـــت الـــتدابير المقترحة تتجاوز مؤهلات الناخبين الذين يحكمون علـــيها. وقبل أن انتقل إلى موضوع آخر، أريد أن أحذر من الخطر الكـــامن وراء ما نعلمه للشعب وللأطفال، بقولنا أنهم يعيشون تحت نظـــام حكم الشعب، وهو غير صحيح، ولن يكون كذلك. وعندما يدركون هذا بسرعة، سيبدون تذمرا وسيشعرون خصوصا، بالخدعة لأنهـــم يجهلـــون كلية اللبس اللفظي التقليدي. وسيكون لهذا نتائج وخيمة سواء على صورة العالم، أو على مستوى السياسة، ويمكن أن يقود هذا حتى إلى الارهاب، لقد عرفت حالات من هذا النوع.

سادسا الحرية وحدود الحرية: كما رأينا، بطريقة ما، نحن جميعا نتقاسم مسؤولية الحكومة، حتى ولو لم نشارك فيها مباشرة. لكن في المقابـــل، فـــان هـــذه المسؤولية المشتركة للكثير من الحريات: حرية التعـــبير، وحرية الوصول إلى الخبر وإعلانه، وحرية النشر وحريات أخـــرى غيرهـــا. إن "إسرافا" في "مذهب الدولة"، يؤدي إلى غياب الحرية، لكن يوجد أيضا إسراف في الحرية. يوجد بكل أسف تعسف في الحـــرية تمامـــا مـــثلما أن هناك تعسفا في سلطة الدولة. يمكن أن نتعسف في حرية التعبير وفي حرية الصحافة التي يمكن أن تستخدم في إعطـــاء أخـــبارا كاذبة على سبيل المثال، وإلى إثارة الفتن، وبطريقة مماثلـــة تماما سلطة الدولة يمكن أن تضّيق بتعسف حرية الأشخاص. نحن بحاجة إلى الحرية لمنع الدولة من التعسف في سلطتها ونحن بحاجة إلى الدولة لمنع تعسف الحرية. وواضح أنها مشكلة لا يمكن حلها أبدا

بـــالمعنى المجــــرد، ولا بواســـطة قوانين. يجب أن تكون هناك محكمة دســـتورية، وخصوصا إرادة طيبة. يجب علينا التسليم أن الأمر يتعلق بمـــشكلة لا يمكن أبدا أن تحل كلية، أو على وجه الدقة، المشكلة التي لا يمكـــن أن تحـــل إلا في نظـــام دكتاتوري، إنطلاقا من واقع القوة الأساسية للدولة، التي نرفضها لأسباب أخلاقية. يجب علينا أن نقتصر علـــى حلول جزئية وعلى تنازلات، وحبنا للحرية لا يجب أن يقودنا إلى إهمال المشكلات المتصلة بالاستعمال المتعسف للحرية.

ســـابعا. هوبز، كانط، همبولد مل. هذه المشكلات قد أدركت من قبل مفكرين قدامى ومحدثين، الذين حاولوا بالاستناد على مبادئ كلـــية، تـــسويغ ضـــرورة سلطة الدولة، وتعريف حدودها. إنطلق هوبـــز[1] مـــن فرضـــية أن الإنسان بدون دولة، سيكون ذئبا لأخيه الإنـــسان (homo homini lopus)، فنحن إذن بحاجة إلى دولة أكثر قـــوة قـــدر الإمكان، حتى نكبح الجريمة والعنف. ونظر كانط[2] إلى المـــشكلة بطـــريقة مغايـــرة. كان يؤمن هو أيضا بضرورة الدولة، وبـــتحديد الحرية، لكنه أراد أن يختزل هذا التحديد إلى الحد الأدنى، لقد كان يأمل في "دستور يهدف إلى أكبر حرية إنسانية طبقا لقوانين معينة، بحيث تتعايش حرية كل واحد مع حرية الآخرين[3]" لقد أراد دولـــة عادلـــة قـــوية، تضمن لكل مواطن أكبر حرية ممكنة بتحديد

---

(1) طـــوماس هوبز (1588 – 1679)، فيلسوف انجليزي من منظري العقد الاجتماعي، اشتهر بكتابه التنين.

(2) كـــانط: (1724 – 1804)، فيلـــسوف الماني، مؤسس الفلسفة النقدية من اهم اعماله: نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي.

(3) E. Kant, Kritik der reinen Vernunft , Hamburg , Felix Meiner , Verlage, 1956, p.351 ;tra. Fr Critique de la raison pure, Paris, PUF, 1963.cf. également Projet de paix perpétuelle et autres écrits de Kant.

حـــريات الآخرين إلى الحد الأدنى، وفي الحدود التي تسمح بها حرية الاخـــرين. إن تطبـــيق الحرية كان بالنسبة لكانط ضروري للتعايش الانساني.

هـــذه الفكـــرة الكانطية، يمكن أن تفسر بالطريقة التالية، اتهم أمريكـــي بتوجيه لكمة إلى شخص آخر، فدافع عن نفسه بقوله أنه مواطن حر، وبحكم هذا الواقع، فلقد كان حرا في أن يوجه لكمته في الاتجـــاه الـــذي بدا أفضل، وهو ماردّ عليه القاضي بقوله: "إن حرية تهيـــيجك لقبـــضة يدك لها حدود، يمكن أحيانا أن تتغير، لكن أنف مواطنيك توجد دائما، خارج هذه الحدود".

في مؤلـــف ســـابق لكانط "حول المكان المشترك"، "ربما هذا صحيح نظريا، لكن عمليا هذا لا يساوي شيئا" (1793). نجد نظرية للدولة وللحرية، مؤسسة أكثر، في الجزء الثاني من المحرّر الذي ينتفض ضـــد هوبـــز. يذكر كانط "المبادئ الخالصة للعقل: المبدأ الأول هو الحـــرية، بصفته إنسانيا، الذي عبر بمبدئه بالطريقة التالية بغية تأسيس تجمع (مدني): لا أحد يستطيع إرغامي على أن أكون سعيدا بطريقة ما، لكن كل واحد يستطيع البحث عن سعادته بالطريقة التي تبدو له أفـــضل (...) إن الدولة التي ستكون طبقا لمبدأ الرفق نحو الشعب، بعبارة أخرى، حكومة أبوية (unperium paternale) (...) ستكون أســـوأ حكم استبدادي يمكن تخيله"، حتى ولو كانت هذه الملاحظة الأخـــيرة تبدو لي مفرطة (بعد لينين وستالين، موسوليني وهتلر) فإنني مع هذا متفق تماما مع كانط. لأن ما أراد قوله معارضا هوبز، هو أننا لا نـــريد دولة قوية تكون ملزمة كثيرا، ورفيقة كثيرة لحماية حياتنا، التي هي بين يديها، ضد هؤلاء الذئاب، الذين هم نظرائنا، لكننا نريد دولة تكون فيها المهمة الرئيسية احترام وضمان حقوقنا. ستبقى هذه

المهمـــة حاسمة، حتى عندما تكون عكس مافكر فيه هوبز. وبالفعل حـــتى في هـــذه الحالة، إن الضعفاء جدا لن يكون لهم أي حق ضد الأقـــوياء، الذين يشعرون إزاءهم بالعرفان لهم بتسامحهم، وجود دولة قانـــون فقـــط هو الذي يستطيع حل هذه المشكلة، ونخلق من هذا الواقع، ما يسميه كانط "كرامة الشخص".

هـــنا تكمن قوة الفكرة الكانطية للدولة وللعقل، ورفضه للدولة الأبـــوية، وفـــيما بعـــد تم تطوير أفكار كانط من قبل ويلهلم فون همـــبلود[1]، وهذا مهم معرفته، إذ أن الكثير يعتقد أن هذه المبادئ لم تجـــد بعـــد كانط أي صدى بألمانيا، خصوصا ببروسيا، وفي الدوائر السياسية الكبرى.

كتاب همبولد كان بعنوان "مقالة حول حدود عمل الدولة"، لم ينـــشر إلا سنة 1851، لكنه كتب في وقت مبكر جدا. ومن خلال هـــذا المؤلف وصلت أفكار كانط إلى انجلترا. أما فيما يتعلق بكتاب جون ستيوارت مل[2] "في الحرية" (1859)، فلقد استلهم من همبولد، وإذن من كانط، وعلى الخصوص فيما يتعلق بنقد الدولة الأبوية. إنه واحـــد من الكتب التي أثرت أكثر في الحركة الليبرالية – الراديكالية الانجليـــزية، لقد اجتهد كانط وهامبولد ومل في تأسيس سلطة دولة، بحيث تنحصر في أضيق الحدود الممكنة. ولقد كانت فكرته تتمثل في أنـــه يجب أن تكون الدولة، لكننا نريد على الأقل، أي عكس الدولة الـــشمولية، نحـــن لا نريد دولة أبوية شمولية أو بيروقراطية، باختصار نريد دولة حد أدنى (Etat minimal).

---

(1) همبولد: (1767 – 1835)، فيلسوف ولغوي الماني.

(2) جون ستيوارت ميل: (1806 – 1873)، فيلسوف واقتصادي بريطاني، من رواد النظرية الليبرالية، من اهم العماله: الحرية.

ثامـــنا. الدولة: دولة حد أدنى أم دولة شمولية؟ يجب أن يكون لديـــنا دولة، دولة قانون، مثلما هي في المصطلح الكانطي، أي دولة تكـــون فـــيها حقوق الانسان واقعا قائما ومثّل المعنى الثاني الكانطي أيضا، دولة مؤسسة تجازي وتعاقب بالقانون - القضائي الذي يحدد حـــريتنا قدر الامكان طبعا، وبالطريقة الأكثر عدلا. فضلا عن هذا، يجب أن تكون أقل شمولية ممكنة. من جهتي، أعتقد مع ذلك أن كل دولـــة لها تركيبة شمولية، وحتى تركيبات كثيرة، وأن هذه التركيبات هي الحاسمة.

إن المهمـــة الرئيسية التي تعود إلى الدولة - ما نشترطه فيها قبل كـــل شـــيء - هو الاعتراف بحقنا في الحرية، وفي الحياة، وإن كان ضـــروريا، مساعدتنا في الدفاع عن حريتنا وحياتنا كحق. لكن هذه المهمـــة هي أبوية، حتى المهمة التي يسميها كانط "الرفق" لها بعد، في هذا المستوى الاول، أهمية قصوى غير قابلة للتنديد. عندما نرغم على وجـــوب الدفاع عن حقوقنا الأساسية، لا يجب أن نلقى لاعداء، ولا لامـــبالاة من قبل الدولة (من قبل أجهزة الدولة) لكن نلقى العطف والرفق. في الواقع هذا الموقف هو موقف أبوي، سواء منظور إليه من فـــوق (من وجهة نظر أجهزة الدولة التي يجب أن يحركها الرفق)، او سواء من أسفل(من وجهة نظر المواطن الذي يبحث عن المساعدة من قوة أكثر منه).

صـــحيح أن الحق ذاته، في موضوعيته، يقع فوق هذه العلاقات الشخـــصية الكلـــية، لكن الحق الذي يتجسد في داخل الدولة وفي قوانيـــنها هو عمل انساني، وإذن غير معصوم. وبحكم واقع أن هؤلاء الـــرجال يمكن ان يكونوا أحيانا أشرارا، وأنه يجب أن نكون سعداء، ونعترف بالجميل، حتى عندما يبرهنون تجاهنا - خلال سنوات عديدة

أحـــيانا – عن هذا الرفق الذي يعتبره كانط انسانيا فوق الحد، كل هـــذا يبرهن أن التركيبة الأبوية تلعب في هذا الموضوع دورا معقدا. الأشـــياء هي هكذا بكل أسف وانني أسلم بهذا على مضض، لكنها الحقيقة، وبتجاهلنا لهذه الحقيقة، توصلنا في مناقشتنا في هذه السنوات الأخـــيرة، إلى مماحكات منطقية، وحتى إلى كلام يثير السخرية، أريد الحديث عن الهجوم الراهن كلية الذي تتعرض له دولة – الرعاية.

أعـــتقد أن هذا الهجوم والنقاش الذي أثارته الفلسفة الرائجة في الوقت الحاضر، لا يمكن للأسف، مرة أخرى، أن يؤخذ مأخذ الجد، اي أن نـــبحث علـــى إظهار أن نظرية دولة الرعاية، التي تتبنى غالبا طابعـــا اخلاقـــيا وانسانيا – فإنها تتعدى في الواقع على أهم الحقوق الانـــسانية – الحق في تقرير المصير، الحق في السعادة والشقاء حسب رغبتنا، هذا الحق الذي دافع عنه كانط ضد النظام الأبوي.

الهجـــوم الـــراديكالي الجديد ضد النظام الأبوي، يحيل غالبا إلى الفقرة التالية من كتاب جون ستيوارت مل "في الحرية" التي يقول "إن الغاية الوحيدة التي تسمح للناس – بصفتهم أفرادا وبصفتهم جماعات – إلى الحـــد مـــن حرية عمل واحد منهم، هي الدفاع الشرعي عن الـــذات(...) إن الغاية الوحيدة التي تسمح بصفة شرعية، باستعمال القوة ضد عضو من مجموعة متحضرة، ضد إرادته، هي منع أن يلحق ضـــررا بالآخرين. وإن الحياة الكريمة لهذا العضو – كرامته الفيزيقية والأخلاقـــية – لا يمكـــن أن تـــبرر تدخلا مثل هذا (في حريته في العمل)".

لا أحد مرغم بالقانون لفعل أو عدم فعل أي شيء. ان هذه الفقرة تعـــيد المبدأ الكانطي الذي يقول أن لكل واحد الحق في أن يكون سعيدا أو شقيا، كما يحلو له، ويدين كل تدخل أبوي باعتباره غير شرعي.

انني اتفق مع مبدأ جون ستيوارت مل هذا؟ لكن ما هي نتائجه؟ هـــل يـــستطيع أن يستعمله بجدية في الدفاع عن حرية الفعل؟ لنأخذ مـــثالا يثير جدلا كبيرا: هل للدولة الحق في إلزام مواطنيها على ربط أحـــزمتهم عـــندما يقـــودون سياراقم؟ طبعا لا. حسب مبدأ جون ســـتيوارت مـــل، حـــتى عندما يرى الخبراء لأسباب تتعلق بالأمن والـــسلامة أنها ضرورية، أي أنه من الخطر القيادة بدون حزام. لكن انتظروا، في هذه الحالة أليست الدولة ملزمة بمنع المواطن ان يكون في هـــذا الموقف الخطير؟ أليس لديها الإلزام بمنع السائق؟ مثال آخر يثير الكـــثير من الجدل، انه مثال منع التدخين، ومن الواضح أنه تبعا لمبدأ مل أنه لا يمكن أن يمنع اي شخص من التدخين، لأنه مضر به، لكن بالنـــسبة للآخـــرين؟ عندما يقول خبراء دولة أنه غير صحي، وحتى خطير استنشاق دخان الآخرين، أليست الدولة ملزمة بمنع التدخين في كل المواقف التي يكون فيها طرف آخر حاضر؟

الموقـــف هو نفسه بالنسبة لمختلف أنماط التأمينات، على سبيل المـــثال، التأمين على الحوادث، وفقا لمبدأ مل، لا يعني هذا أمرا عاما، تحـــت طائلة متابعات الذي يتعرض لخطر التأمين، لكن بالأحرى منع طرف آخر، على سبيل المثال، المستخدم، هو أيضا، الذي تحت طائلة مـــتابعات، توظـــيف شخص يكون مسبقا وبكل حرية غير مؤمن. مشكلة أخرى يتحدث عنها كثيرا، وهي مشكلة المخدرات، فحسب مـــل واضح أن كل شخص يتمتع بجميع ملكاته الذهنية (سواء أكان عمـــره أربعـــة عـــشر سنة، او اكثر او اقل)، له حق في ان لا يقبل الاستلاب، في تحطيم نفسه بكل حرية بتعاطيه المخدرات، وأن الدولة لا يمكـــنها أن تحـــرمه من هذا الحق. لكن الدولة أليست ملزمة بمنع أشـــخاص آخرين من خلق موقف أكثر خطورة؟ أليس إذن ملزمة،

كمـــا تقـــوم بذلك في الوقت الحاضر، بمنع بيع المخدرات، وتهديد المخالفين بالعقوبات الأكثر قساوة؟

أنا لا أزعم أننا نستطيع بهذا المنهج، معالجة جميع المشكلات التي تطرح، لكنه يبدو أنه فعال جدا. حالة السائق التي تبدو معقدة بالمقام الأول، يمكـــن أن تحـــل ببساطة شديدة، يجب على الدولة أن ترغم، تحـــت طائلة العقوبة، كل شخص يقود سيارة ان يدفع قيمة مضافة، في حال ما اذا نسي لربط حزامه).

وأضـــيف أنـــه سيكون ممتازا أن نذكر أجهزة الدولة (ليس في فائدتهم، لكن في فائدتنا)، وبفضل هذا الإجراء للتدخل ليس لها الحق في إلـــزام شخص على فعل شيء "في فائدتها" تستطيع أن تمنح مطلق الحرية إلى غرائزها الأبوية – أو تقريبا كما يحدث هذا حاليا – لكن تحت شكل محسن، وتحت حجة العمل على حماية الآخرين، أن المال المدفـــوع لدولة – الرعاية، يستخدم ليس لتأمين ذواتنا، لكن لحماية الآخـــرين، وكـــل واحد حر كلية في دفعه، لكن لا يستمر في أخذ حقوقه في الحماية الاجتماعية.

مـــبدأ مل الذي أقبله تحت الصيغة التالية (كل واحد حر في أن يكون سعيدا أو شقيا كما يحلو له، شريطة أن لا يعرض هذا شخصا آخـــر للخطر، لكن الدولة مسئولة عن واقع أن المواطنين الذين ليسوا علـــى علم، أنهم يتعرضون لمخاطر يمكن تجنبها لأنهم غير قادرين على تقدير خطورتها بأنفسهم).

لا يستطيع هذا المبدأ أن يقدم إلا مساهمة صغيرة في النقد الأساسي في ذاته لدولة الرعاية، بالفعل، إذا كان اهتمامنا المشروع بدولة حد أدنى لا علاقـــة لـــه بمبدأ مل في المقابل له علاقة كبيرة بـــ "دولة – الرعاية"، لأنه يؤدي إلى اقتراح خصخصة التأمين الاجتماعي.

ولكـــي أختم، أريد أن ألاحظ أنه توجد وظيفة تقليدية للدولة، أحـــب أن أصفها بأنها زائدة وغير ضرورية، مثل وظائف العديد من المهمـــات الأخـــرى، لكن للأسف لا يمكن اعتبارها كوظيفة، فهي للأســـف الـــشديد لازالت ذات أهمية عالية، ولا يمكن أن تسند إلى مؤسسة خاصة. أريد الحديث عن الدفاع عن الأمة. من الواضح أنه يـــتعلق مـــن مختلف وجهات النظر بوظيفة أبوية، وأن أهميته الراهنة تختـــزل بوضـــوح الاهـــتمام الذي تعرضه على المستوى الفلسفي، النظـــريات المعادية للأبوية. ومن جهتها هذه النظريات المتفائلة تبدو أنهـــا تسلم أننا نستطيع أن نغرق مشكلة الدفاع عن الأمة بتجاهلها بكل بساطة. إلا أنه في الوقت نفسه ذات أهمية قصوى، وذات تكلفة غالية جدا، إنه أسوأ تهديد تواجهه دولة الحد الأدنى état minimal، هذه المسألة تذكرنا بوظيفة أخرى، أكيد أنها أقل تكلفة، وهي وثيقة الـــصلة بالدفاع الوطني، إنها السياسة الخارجية، هي أيضا ذات أهمية، كلـــتا المـــسألتين لهما نتائج تؤدي إلى ظهور فكرة دولة الحد الأدنى كمـــثال Ideal بعيد وطوباوي، ومع ذلك، لا يجب لهذا، أن نتخلى عـــنه، لان دولة الحد الأدنى ليست إلا مبدأ معياريا منظما. وأريد مع ذلك التذكير بشيء آخر أيضا: هي أن الدولة التي من واجبها الدفاع عـــن الأمـــة، يجب أن تراقب استعداد مواطنيها على حمل السلاح، وإذن: صحتهم أيضا. ويجب عليها حتى مراقبة بعض نقاط الاقتصاد، لأنه يجب على الدولة أن تكون بحوزتها احتياطات معتبرة، تدعيم سير وسائل التنقل، والإشارة، وأشياء أخرى عديدة.

تاســـعا. حقـــوق القصّر:بكل أسف أحيانا، من حيث المبدأ، ولأســـباب أخلاقية، فإن الأمور لا تسير بدون حد أدنى من السلطة، عـــندما تعترف الدولة بحق مواطنيها في الحماية من قبل الشرطة ضد

الــسرقة، يجب عليها أيضا أن تعترف بحقوق القصر، في أن يكونوا محمــيين عند اللزوم، من آبائهم، إنه بالضرورة حق أبوي من حيث المبدأ. البديل "دولة حد أدنى أو دولة متسلطة؟".

عاشرا. حل مشكلة البيروقراطية والبيروقراطية العسكرية: نقطة هامــة في كل نظرية للدولة غير الاستبدادية "وإذن الديمقراطية" هي البيروقــراطية. اعتبر ماكس فيبر، المفكر العظيم، ان هذا المشكل غير قابــل للحل، مما دفعه إلى التشاؤم. وفيما يتعلق بي فإني أخاله سهل الحل، نظريا، إذا كانت مبادئنا الديمقراطية معترف بها، وإذا نحن نريد حقا حلا لهذا المشكل. وبالمقابل أنا لا أؤمن البتة أنه من الممكن حل مشكلة البيروقراطية العسكرية.

حــادي عــشر. أمل الشبيبة: ديمقراطياتنا الغربية – وخصوصا الــولايات المــتحدة – الأقدم في الديمقراطيات الغربية، هي نجاح لا ســابق لــه. هذا النجاح هو ثمرة الكثير من العمل، الكثير من الجهد لكثير من الإرادات الطيّبة، وقبل كل شيء لكثير من الأفكار الخلاقة في مــيادين مــتعددة. النتيجة هي أن عددا كبيرا من الناس السعداء يحــيون حياة أكثر حرية، حياة أجمل وأطول مما لم يكن أبدا من قبل. أعرف، طبعا، أن كثيرا من الأشياء يجب أن تحسن. النقطة الأساسية هــي بكــل تأكــيد أن ديمقــراطياتنا لا تتميــز تميزا واضحا عن ديكــتاتوريات الأغلبــية، لكــن لحد الساعة لم يكن هناك أبدا في الــتاريخ، دول اســتطاع الــناس العيش فيها بحرية، وأن يحيوا حياة كــذلك جمــيلة أو أفــضل مــثل هذه. أعرف أن عددا ضئيلا من الأشخاص يشاطرونني هذا الرأي، أعرف أن عالمنا له كذلك جوانب ســيئة كالجنوح والقسوة والفظاظة والمخدرات.، إننا نرتكب أخطاء عديــدة، حتى ولو أن الكثير منا يستخرجون دروسا من أخطائهم،

فإن البعض ينغلقون في أخطائهم، لكن هذا العالم يفرض علينا بعض المهمات، نستطيع أن نعيش فيه سعداء وراضون، لكن يجب أن يقال هذا، إذ أنني لا أسمعه تقريبا أبدا. كل يوم بالمقابل، أسمع التأوه والإرغاء والإزباد من هذا العالم المكروه كما يزعمون، الذي حكم علينا العيش فيه. أخال أن نشر هذه الأكاذيب هو أكبر جريمة في عصرنا لأنه تهديد للشبيبة، التي نريد أن نحرمها من حقها في الأمل وفي التفاؤل. في بعض الحالات، هذا يقود إلى الانتحار وإلى المخدرات أو إلى الإرهاب.

ثاني عشرة. النزعة التفاؤلية وخطر وسائل الإعلام: ولحسن الحظ كثيرا، الحقيقة قابلة للتحقق بسهولة: والحقيقة هي أننا نحن في الغرب نعيش أفضل العوالم التي لم توجد أبدا. لا نستطيع أن نسمح بأن يسكت على هذه الحقيقة. وسائل الإعلام، التي هي بهذا الإعتبار، المتهمة الكبرى، يجب أن يقنع أصحابها بأنهم يتسببون في خسائر خطيرة. يجب إقناعهم على التعاون. يجب حث وسائل الإعلام على رؤية وقول الحقيقة، وإدراك المخاطر التي يتسببون فيها.عليهم مثل كل المؤسسات السليمة ان يقوموا بنقدهم الذاتي، وأن ينبّه بعضهم بعضا. لكن الأضرار التي يتسببون فيها في الوقت الراهن، هي أضرار جسيمة، إذا لم يتعاونوا، سيكون من المستحيل كلية أن نبقى متفائلين.

سابعا

الحرية والمسؤولية الفكرية(*)

المستقبل مفتوح ومتعلق بنا جميعا. انه متعلق بما تفعله وافعله ويفعله غيرنا من الناس، اليوم وغدا وبعد الغد. وما تفعله وما سنفعله متصل هو الآخر بفكرنا ورغباتنا وآمالنا وتخوفاتنا، بتعبيرآخر، انه متصل برؤيتنا للعالم وبحكمنا وتقديرنا للإمكانيات الكبيرة والواسعة والمفتوحة التي يحملها لنا المستقبل[1].

هذا يعني أن علينا مسؤولية كبيرة، مسؤولية تكبر وتعظم عندما نعي الحقيقة التالية: نحن لا نعرف شيئا، أو في احسن الأحوال، نحن نعرف القليل من الأشياء بحيث نضطر إلى تقديرها بأنها <<لاشيء>>، إنها لاشيء مقارنة بما يجب معرفته حتى نتخذ القرارات الصائبة.

إن سقراط هو أول من فهم هذه الحقيقة. لقد كان يقول بان على رجل الدولة أن يكون حكيما، بمعنى اكثر حكمة حتى يعرف انه لا يعرف شيئا. وكذلك كان أفلاطون يقول أن رجل الدولة، وهو الملك، يجب أن يكون حكيما، إلا انه كان يريد أن يقول شيئا مخالفا لسقراط. لقد كان يريد أن يقول بان الملوك يجب أن يكون فلاسفة وكان عليهم أن يذهبوا إلى مدرسته لكي يتعلموا الجدل الأفلاطوني - وهو شيء في غاية العلم والتعقيد - والأفضل أن يتولى الفلاسفة

(*) ترجمة د. الزواوي بغوره.

(1) نص محاضرة كارل بوبر في جامعة القديس غال بسويسرا سنة 1989.

اللامعـــون والمتمكـــنون الحكم، مثله على سبيل المثال، أي يجب أن يصبحوا ملوكا يسيّرون العالم. هذا الاقتراح نسبه أفلاطون الى أستاذه ســقراط ممـــا خلق نوعا من سوء الفهم. فلقد تحمس الفلاسفة لهذا المسعى الذي يجعلهم ملوكا.

لهذا السبب أريد مرة أخرى أن أوضح هذا التمييز في العبارة <<يجـــب أن يكـــون رجل الدولة حكيما>> التي تعني، بالنسبة لأفلاطـــون، الفيلسوف المتمكن الذي له الحق في السلطة. من هنا طموح المثقفين والمفكرين والنخبة إلى السلطة. أما بالنسبة لسقراط فـــان الأمر على غير ذلك كلية، لان العبارة نفسها تعني أن على رجل الدولة أن يعرف إلى أي حد والى أية نقطة يعرف القليل من الأشـــياء، ومـــن هـــنا يجب عليه أن يكون في غاية التواضع في طموحاته.

لقـــد كـــان يرى أن على الحاكم أو رجل الدولة، مسؤوليات عظـــيمة وكبيرة في قضايا الحرب والسلم، وان عليه أن يعرف حجم المأساة التي يمكن أن يحدثها. خاصة وانه يعرف، انه يعرف القليل من الأشـــياء. << اعرف نفسك >>، هذا ما كان يطالب به سقراط. <<اعرف نفسك، واعترف انك في غاية الجهل!>>[1].

هـــذا هـــو تـــوجه سقراط، أو على الاقل الحكمة السقراطية. <<اعـــرف نفسك>>: واعترف بجهلك. وأما الأفلاطوني الذي لم يكـــن ملكا، وانما قائدا كلي العلم Omniscient لأحد الأحزاب او لحـــزب مـــا، وحـــتى لو كان حزبه لا يتشكل، بشكل عام، الا من شخـــصه، وفي المقابل، هنالك قادة كل الأحزاب، وبشكل خاص

(1) Xénophon: Mémorables, chap.6.

قادة الأحزاب المعادية وألأحزاب الناجحة، كلها أفلاطونية. لأنهم هم الأشخاص والأفراد المتفوقون والمكونون بشكل افضل وبالتالي هـــم الأكثـــر حكمة، والذين يرى أفلاطون انهم يجب أن يكونوا قادتنا.

<<مــن يجــب أن يحكـــم؟>> هذه هي المسالة الأساسية في الفلسفة السياسية الأفلاطونية. وجواب أفلاطون هو:المتفوق، لانه هو الاكثـــر حكمة في الوقت نفسه! تبدو هذه الإجابة من النظرة الأولى صـــحيحة. ولكن ما الذي يحدث لو لم يكن متفوقا ولا حكيما، الا يجـــب في هـــذه الحالة أن يرفض الحكم والسلطة؟ هذا ما فهمه أحد اتـــباع وتلامذة سقراط من المتفوق والأكثر حكمة؟ كان يتصور ان الـــشخص الذي يعتقد انه المتفوق والأكثر حكمة مصاب بهذيان او بمرض العظمة، وان مثل هذا الشخص لا يمكن ان يكون لا خيّرا ولا حكيما[1].

ومن البديهي، فان سؤال << من يجب ان يحكم؟ >> قد طرح بشكل خاطئ. بالرغم من انه والى يومنا هذا، مازال يطرح على هذا الـــشكل، ونعـــود دائما الى الحل الذي قدمه افلاطون. ومنذ زمان كانـــت الاجابـــة هـــي: ان الامبراطور الذي اعتلى العرش بواسطة العـــسكر، لم يعتلـــيه الا لانه هو وحده الذي يستطيع ان يحكم وان يـــدوم في الحكـــم. ثم لاحقا اصبح: الامير الشرعي بواسطة العناية الالهـــية. كمـــا طالب ماركس كذلك: لمن تحق له السلطة، السلطة الديكـــتاتورية، الـــبروليتاريون ام الـــراسماليون؟ وكان جوابه هو: الـــبروليتاريون الجيدون، الذين يمتلكون الوعي الطبقي. وبالتاكيد لا

---

(1) Id.

يـــتعلق الامـــر بالراسماليين الشررين والانانيين. كما لا يتعلق الامر كـــذلك وبالتاكـــيد بالبروليتارية الرثة، هؤلاء الذين لايستحقون الا التوبيخ. (وان كان لم يعد لهم وجود عندنا).

ان معظـــم المنظرين للديمقراطية، يواصلون هم كذلك الاجابة على سؤال افلاطون <<من يجب ان يحكم؟ >> وتقتضي نظرياتهم، استبدال الجواب الذي ظهر في العصور الوسطى وكانه بديهي وهو: <<الامير الشرعي بواسطة العناية الالهية >> بجواب آخر وهو:<< الـــشعب بواسطة العناية الالهية>>. وهكذا نقلد العبارة <<بواسطة العـــناية الالهية >> ونستبدلها بعبارة من نوع: << الشعب بواسطة العناية الالهية>>. هذا ما كان يقال في روما القديمة "صوت الشعب هو صوت الله. Vox populi, vox dei."

اننا نجد دائما سؤال افلاطون <<من يجب ان يحكم؟ >>، وله دائمـــا اهمية كبيرة في النظرية السياسية وفي النظرية الشرعية، وخاصة في النظـــرية الديمقـــراطية. فنحن مازلنا نقول ان للحكومة الحق في الحكـــم مادامت شرعية، بمعنى عندما تكون منتخبة من طرف غالبية الـــشعب، او من طرف ممثلي الشعب وبالاتفاق مع احكام الدستور. ولكن لا يجب ان ننسى ان "هتلر" قد وصل الى الحكم بطريقة شرعية وان القانـــون الذي خوله جميع السلطات، قد تمت المصادقة عليه من طـــرف الاغلبية البرلمانية. اذن ان مبدأ الشرعيية لا يكفي. لانه اجابة علـــى ســـؤال افلاطـــون، وعليه فان مايجب تحويله وتحويره وتغييره وتعديله هو السؤال ذاته.

لقد راينا ان مبدا السيادة الشعبية قد شكل اجابة ممكنة. مع انه يـــشكل مبدءا خطيرا، لان ديكتاتورية الاغلبية يمكن ان تكون مرعبة بالنسبة للاقلية.

لقـــد مرت اربعة واربعون سنة منذ الآن، عندما نشرت كتابي "المجـــتمع المفتوح واعداؤه"، والذي كتبته كمساهمة في فهم الحرب العالمـــية الثانية. في هذا الكتاب اقترحت استبدال سؤال افلاطون<< مـــن يحق له الحكم؟ >> بسؤال مختلف عنه جذريا وهو: << كيف يمكـــن تصور تنظيم الدولة بصفة تسمح لنا من التخلص من الحكومة مـــن دون اراقة للدماء؟ >>. ان هذا السؤال يركز على عملية اقالة حكومة، وليس على عملية تشكيلها.

ان كلمـــة الديمقـــراطية التي تعني<<حكم الشعب >> هي مع الاسف كلمة خطيرة. ذلك ان كل فرد من افراد الشعب يعرف تماما انـــه لا يحكـــم، ومن هنا لديه انطباع بان الديمقراطية تعتبر نوعا من الاخـــتلاس والنـــصب والاحتيال. وهنا يكمن الخطر. ومن المهم ان نـــتعلم ومـــنذ الدراسة بان كلمة <<الديمقراطية>> منذ الديمقراطية الاثينـــية، هـــي الاســـم التقليدي الذي نطلقه على دستور يمنع قيام ديكتاتورية او طغيان. الديكتاورية والطغيان هي اسوء الاشياء، مثلما نـــراها الآن في الصين. بحيث انه لايمكن التحرر منها من دون اراقة الـــدماء، وفي الغالـــب حتى مع اراقة الدماء: فالى يومنا هذا مازالت الديكـــتاتوريات قوية جدا مثلما لاحظنا ذلك، بمناسبة تلك المحاولة الثائرة ضد هتلر في 20جويلية 1944.

ان كل ديكتاتورية هي لا اخلاقية. كل ديكتاتورية هي اخلاقيا ســـيئة. انـــه المبدء الاخلاقي الاساسي للديمقراطية، مفهوما على انه شـــكل الدولـــة الـــذي يسمح باقالة حكومة من دون اراقة للدماء. الديكـــتاتورية سيئة اخلاقيا، لانها ترغم مواطنوا الدولة، ضد وعيهم وضـــد قناعاتهم الاخلاقية، على التعاون مع الشر، ولو بالصمت. انها تحرم على الانسان مسؤوليته الاخلاقية، وهو من دونها ليس الا نصف

انسان او اقل من ذلك. وفي ظل ديكتاتورية، فان أي محاولة من اجل تحمل المسؤولية الانسانية تصبح محاولة انتحارية.

يمكـــن ان نـــبين تاريخيا ان الديموقراطية الاثينية كانت، او على الاقـــل حـــتى زمن بريكلس وثيوسديد، لم تكن تعني سيادة الشعب بقدر ما كانت وسيلة لمنع قيام الطغيان. لقد كان الثمن باهضا، وربما كان زائدا، لانه تم الغاؤها بعد اقل من مائة سنة. لقد كان هذا الثمن هو النفي والابعاد والنبذ والطرد" Ostracisme" الذي فهم في الغالب بطـــريقة خاطـــئة، بحيث ان كل مواطن يصبح اكثر شعبية او يتمتع بشعبية خطيرة يجب ان يبعد، بسبب هذه الشعبية ذاتها. هكذا تم طرد وابعـــاد رجـــال الدولـــة المتمكـــنون مثل ارستيد "Aristide"[1]، وثمستوكل. وسيكون من العبث القول ان ارستيد قد تم ابعاده، لانه كـــان يـــشكل عقـــبة لـــتوجهات وخطط ثميستوكل، او ان كنيته <<العـــادل >> قـــد اثـــارت غيرة مواطنيه. هذه امور لاعلاقة لها بالابعـــاد. ان كنيته تشير الى ان ارستيد كان اكثر شعبية، وان مهمة ووظـــيفة الابعاد هي بالتحديد منع قيام سلطة او حكم ديكتاتوري شعبوي "Populiste". هذا هو سبب ابعاده، وهو نفس سبب إبعاد ثمستوكل.

وحتى بريكلس يظهرانه تفطن الى ان الديمقراطية الاثينية ليست سيادة شعبية، وان مثل هذه السيادة لا يمكن ان تكون. وبالفعل ففي خطابـــه المـــشهور، الذي يمكن ان نقراه في ثيوسديد، يقول (مع ان هنالك قلة من الاشخاص يمكن ان يكون لها مشروعا سياسيا، الا اننا قـــادرون جميعا على تقييمه والحكم عليه). يعني هذا، اننا لسنا كلنا

(1) ارستيد: (550 – 467 ق.م) سياسي واستراتيجي اثيني، عرف بالعادل.

قــادرون علــى الحكم، ولكننا نستطيع الحكم على الحكومة، وانه بامكاننا ان نقوم بدور لجنة التحكيم.

هذا مايجب ان يحدث، في نظري، يوم الانتخاب: انه ليس اليوم الذي نعطي فيه شرعية للحكومة الجديدة، ولكنه اليوم الذي نعلن فيه حكمنا على الحكومة السابقة. اليوم الذي تقدم فيه الحكومة حساها على افعالها.

اريــد ان ابــين باختصار، بان الفرق بين الديمقراطية بوصفها ســيادة شــعبية والديمقراطية بوصفها محكمة شعبية لها اثار عملية، وليست فقط نظرية او لفظية. ذلك اننا نرى ان مبدا السيادة الشعبية يؤدي الى منح تمثيل نسبي، لكل مجموعة رأي، وكل حزب، بما فيها الاحــزاب الــصغيرة الــتي يجب ان تكون ممثلة، حتى يكون التمثيل البرلماني مرآة للشعب، وحتى تتحقق فكرة الحكم بواسطة الشعب او حكــم الشعب باكبر قدر ممكن. لقد قرات اقتراحا مرعبا مفاده ان كل مواطن ومواطنة يجب ان ينتخب مباشرة، من خلال الضغط على زر كهربائــي، علــى جميع القضايا التي يتم مناقشتها في التلفزة من خلال ممثليهم. ويقال ايضا وذلك في اطار التوجه الديمقراطي بوصفه تمثيلا لحكم الشعب، انه من المفيد تثمين عمل الجمعيات.

مــن وجهــة النظر القائلة ان الديمقراطية محكمة الشعب والتي ادافــع علــيها، فان الأشياء تبدو مغايرة تماما. ذلك انني اعتبر تكاثر الاحزاب شؤما، وعليه فانني ضد النظام الانتخابي القائم على النسب. بالفعل فان تكاثر الأحزاب يؤدي الى حكومات الائتلاف، حيث لا احــد مسؤول امام محكمة الشعب، لان كل شيء يؤدي ضرورة الى نوع من التسوية. ومن جهة اخرى، يصبح من الصعب التخلص من الحكــومة لانه يكفي ايجاد حليف جديد اقل اهمية في الائتلاف من

اجـــل القدرة على الاستمرار في الحكومة. في المقابل اذا كان هنالك عدد قليل من الاحزاب، فان الحكومات تكون بالضرورة حكومات أغلبـــية أساسا ومسؤولياتها واضحة ومحددة. ومن جهة اخرى اعتقد انـــه من غير المفيد والمجدي ان تكون أراء الشعب تعكس نسبيا وبدرجة اقل على مستوى الحكومة. هذا يؤدي الى لا مسؤولية الحكومة.

ولكن الاعتراض القوي الذي ارفعه ضد نظرية السيادة الشعبية، هـــي كونها تغلب وتفضل ايديولوجية لاعقلانية ومشعوذة: الشعوذة المتسلطة والنسبية حيث ان الشعب (أو الأغلبية) لا يمكن أن يخطئ أو أن يـــسلك سلوكا غير عادل. هذه الأيديولوجية لا أخلاقية ويجب رفـــضها. لانـــنا نعرف منذ ثيوسديد، ان الديمقراطية الاثينية (والتي اقـــدرها علـــى اكثر من صعيد)، قد اتخذت قرارات اجرامية. فلقد هاجمـــت (لـــيس من دون ان تعلن انذارا) الجزيرة المحايدة "ميلوس Méélos"، قـــبل ان تقتل كل الرجال وتبيع كل النساء والاطفال في الاسواق الكبرى كعبيد. هذا ما تستطيع القيام به الديمقراطية الاثينية.

والـــبرلمان الالمـــاني لجمهورية "فيمار Weimar"[1]، انتخب حرا، واستطاع، من خلال تشريعات دستورية واصوات شرعية، ان يصنع من هتلـــر[2] ديكـــتاتورا. وحتى لو لم يربح هتلر الانتخابات الحرة في ألمانيا والنمسا بعد الحاقه لهذا البلد قسرا، فانه سيحقق انتصارا انتخابيا كليا.

كلـــنا معرضون للخطأ، مما يعني ان الشعب هو كذلك يخطيء مثله مثل اية جماعة انسانية. واذا كنت مع فكرة ان الشعب، يجب ان

---

(1) جمهورية فيمار: تكونت بعد الحرب العالمية الاولى وتحديدا ما بين سنة (1919 – 1933).

(2) هتلر: (1889 – 1945) مؤسس الحركة النازية، وقائد الحزب الوطني الاشتراكي، حكم المانيا ما بين 1933 – 1945.

تكـــون له سلطة اقالة حكومة، فلانني لا اعرف افضل طريقة لتجنب الطغـــيان. وحتى مقولة ان الديمقراطية هي محكمة الشعب كما ادافع عنها لا ينقصها شيء. وان العبارة المجازية التي قالها ونستون تشرشل تنطبق عليها: <<الديموقراطية هي اسوء اشكال الحكم باستثناء جميع الاشـــكال الاخـــرى. >>. باختـــصار، ان الفرق بين الفكرتين – الديمقـــراطية بوصـــفها سيادة الشعب والديمقراطية بوصفها محكمة الـــشعب، او بوصفها وسيلة تسمح بتفادي حكومة طغيانية – ليس فرقا لفظيا. ان لها نتائج تطبيقية هامة، متعلقة ببلد مثل سويسرا. فعلى الرغم من اننا ما نـــزال في المدارس والثانويات، حسب علمي، ندافع دائمـــا علـــى النظرية الايديولوجية الخطيرة لسيادة الشعب، وليس النظـــرية المتواضعة والواقعية لديمقراطية بوصفها وسيلة للتخلصَ من الديكتاتورية التي لاتحتمل والتي لا يمكن الدفاع عنها اخلاقيا.

ولكن الان اريد ان اعود الى نقطة البداية. المستقبل جد مفتوح ويمكـــن ان نؤثر فيما هو قادم. علينا اذن مسؤولية كبيرة ما في ذلك شك. فماذا يمكن لنا ان نفعله؟ هل يمكن لنا ان نفعل شيئا يمنع ما هو مـــرعب مـــثل الذي يحدث في اقصى الشرق؟ أريد أن أحدثكم عن الوطنـــية والعنـــصرية وعـــن ضحايا بول بوت "Pol Pot"[(1)]، في كمـــبوديا وضـــحايا آيـــات الله في إيران، عن الضحايا في روسيا وأفغانستان وعن الضحايا الاخيرة في الصين. ماذا يمكننا ان نفعله من اجـــل تجنب ومنع هذه الأحداث المرعبة؟ هل نحن في مستوى يمكننا من تجنب مثل هذه الأشياء؟

---

(1) بول بوت: (1925 – 1998)قائد الحركة الشيوعية المشهورة بالخمير الحمر. تولى منصب رئيس وزراء في كمبوديا لفترة ثلاث سنوات من 1976 – 1979 وكان الحاكم الفعلي لكمبوديا منذ منتصف العام 1975. واشتهر بأعماله القمعية.

جـــوابي على هذا السؤال هو: نعم. اعتقد اننا نستطيع فعل الكثير. وعـــندما اقـــول <<نحن>> فانني أتحدث عن المثقفين، بمعنى عن الذين يهـــتمون بالأفكار، أي أولئك الذين يقرؤون ومن الممكن انهم يكتبون. فما الذي يجعلني أفكر بأننا نستطيع أن نلعب دورا إيجابيا؟

لأنه وببساطة ومنذ قرون، كنا سببا في كوارث مروعة. القضاء علـــى جماعـــات باسم فكرة أو عقيدة أو نظرية – هنا يكمن اثرنا وعملـــنا واختراعنا: الاختراع الفكري. وفي حالة ما إذا توقفنا عن توجيه الناس ضد بعضهم البعض – وفي الغالب بمقاصد طيبة – وحتى اذا ما توقفنا عند هذا الحد فان هذا كاف جدا. ولا احد يستطيع أن يزعم، أننا لا نستطيع فعل هذا.

ان من بين اهم الوصايا العشر تلك الوصية التي تقول: لا تقتل أبدا! إنها تلخص تقريبا كل الأخلاق. وكذلك الكيفية التي طرح بها شوبنهاور "Schopenhauer"[1] اخلاقـــه، التي ليست اكثر من امتداد لهذه الوصية الرئيسية. اخلاق شوبنهاور اخلاق بسيطة ومباشرة وواضحة. لا تخطيء في حق احد، لاتجرح احدا، وبالعكس ساعد الجميع قدر استطاعتك.

ولكـــن مـــا الذي حدث عندما نـــزل النبي موسى، من جبل ســـيناء حاملا الألواح الحجرية، وقبل ان يتلفظ بالوصايا العشر؟ لقد اكتـــشف بدعة قاتلة، بدعة العجل الذهبي. هنا نسي الوصية القائلة <<لا تقـــتل أحـــدا >>. وصرخ: <<لتأتي اليّ رعية الربّ [...] هكذا تحدث الربّ، اله اسرائيل: كل واحد يقلد سيفه [...] وكل واحد يخنق اخاه، وصديقه، وقريبه [...] وهكذا في هذا اليوم سقط ثلاثة آلاف رجل>>.

---

(1) شـــوبنهاور: (1788 – 1860) فيلسوف الماني عرف بتشاؤمه، من اشهر اعماله: العالم ارادة وصورة.

ربمـــا كانت هذه هي البداية. ولكن المؤكد أن الأمور استمرت بهـــذا الشكل في الأرض المقدسة وبعدها هنا في الغرب، وخاصة بعد اقامـــة المسيحية بوصفها ديانة الدولة. انه التاريخ المرعب للاضطهاد الـــديني القـــائم باسم الارثوذكسية. وبعد ذلك، وخاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، هنالك اسباب ايديولوجية اخرى تداعت الواحدة بعد الاخرى لتسويغ الاضطهاد والوحشية والرعب وخاصة: الوطنية والعرق والطبقة والبدعة السياسية او الدينية.

ان تـــصورات الارثوذكسية والبدع تستر العيوب، الاكثر حقارة والاشد خساسة، العيوب التي نكون عرضة لها، مثل: العجرفة والكبرياء والغطرســـة والـــثقة مـــن اننا على حق دائم، والتحذلق او "ادعاء العلم Pédantisme" والغرور الفكري. هذه العيوب خسيسة، ولكنها ليست خطـــيرة مـــثل القساوة والفظاعة والوحشية. ولكن القساوة ليست بعيدة او غريبة عن المثقفين. في هذا المجال ايضا، لدينا نصيبنا من هذه الامـــور. يكفـــي الـــتفكير في الاطباء النازيين، الذين قتلوا الشيوخ والرجال المعمرين والمرضى قبل ان يحدث اوشويتز "Auschwitz"،[1] والى مـــا كان يسمى بـــ "الحل النهائي Solution finale" للمسالة اليهودية[2].

لقـــد قمنا دائما باسوء الاشياء، وذلك بحقارة وغرور وكبرياء قمنا ونقوم باسوء الاشياء. نحن خونة الفكر والروح كما قال المفكر الفرنسي الكبير جوليان بوندا "Julien Benda"[3]. نحن الذين ابتدعنا

---

(1) اوشويتز: معسكر الإعتقال الألماني في بلدة أوشوتز التي تقع في بولندا حاليا.

(2) الحل النهائي: مخطط إبادة الشعب اليهودي الذي رسمته القيادة الالمانية النازية.

(3) جولـــيان بـــوندا: (1867 - 1956)، اديب وناقد فرنسي، اشتهر بكتابه: خيانة الكهنة.

ونــشرنا، الوطنية كما بين ذلك بوندا، ونقلد كل الموضات الغبية. نــريد ان نظهر وان نتحدث لغة غير مفهومة ولكنها مبهرة جدا، لغة العلمــاء، لغة الدكاترة المصطنعة، التي تلقيناها من اساتذتنا الهيغليين والتي نجدها عند كل الهيغليين. هذا هو فساد اللغة، اللغة الالمانية، التي نتــنافس بها فيما بيننا. وهذا هو العائق الذي يمنع كل تبادل معقول بيننا، حيث الواقع يحجب عنا تلك الوضعية، وضعية اننا دائما نقول الحماقات ونصطاد في المياه العكرة.

ان الاضــرار التي تسببنا فيها في الماضي كانت اضرارا مرعبة. ولكــن مــنذ ذلك الوقت، بمعنى منذ ان اصبحنا احرارا في قول كل شــيء وكتابة كل شيء، فاننا اصبحنا كذلك، اكثر مسؤولية؟ لقد كتبت ذات مرة حول اليوتبيا الافلاطونية، على ان الذين اقترحوا او ابتدعوا فكرة الجنة على الارض قد تسببوا كذلك في الجحيم، ولكن هــنالك كــثير مــن المثقفين المتحمسين لجحيم هتلر. فعالم النفس السويــسري الكبير كارل غوستاف يونغ "Carl Gustav Jung"[1]، اكتــشف المــصير الجديد للروح الالمانية او الجرمانية، خاصة وانه لا يخــشى كثيرا على حياته مادام يعيش في سويسرا! وبعد موت هتلر نــسي ما كتبه، فبحث وعالج الطبيعة السيئة للروح الالمانية. انه مع اتفاقهمــا الاطلنطــي، استطاع ونستون شرشل وفرانكلين دولانو روزفلــت "Franklin Delanoë Roosevelt"[2]، ان يقيما ويؤسسا عالمــا جديــدا، وهــذا بفــضل الطيارين الشباب للطيران الحربي

---

(1) كــارل غوســتاف يونغ: (1875 - 1961) طبيب نفسي سويسري، يعتبر من مؤسسي علم النفس التحليلي.

(2) فرانكلين دولانو روزفلت: (1882 - 1945) رئيس الولايات المتحدة الامريكية من سنة 1932 – الى سنة 1945.عاصر الحرب العالميه الثانيه حيث قاد الحلفاء إلى النصر رغم شلله.

والعـــسكري، اولئك الذين كانوا يواجهون خطر الموت في المعركة البريطانية الفاصلة سنتي 1940 و1941 والذين ضحوا من اجلنا. ومنذ الانتـــصار على هتلر، فان اوربا الغربية لم تعد تعيش في جهنم هتلر، ولكـــن في جـــنة السلم الاوربي، في عالم هو العالم الافضل والعادل الـــذي عـــرفه التاريخ ولو تعاون ستالين، لكنا نعيش اليوم، وبفضل الامم المتحدة، ليس فقط السلم في اوروبا الغربية وشمال الاطلنطي ولكن كـــنا نعيش السلم العالمي، ولاصبح مشروع مارشال "Plan Marshall" مشروعا عالميا[1].

ولكـــن ما ان بدا يظهر هذا الجديد ويقوم ويتاسس - وبدا ان الامـــور تـــسير نحـــو الاحسن في الغرب - حتى انفجر عراك كبير، بلعـــنات المثقفين ضد هذه الحقبة السيئة، ضد متعنا، ضد حضارتنا، ضـــد عالمنا الجميل. لقد بدات هذه المزايدات غير المحتملة والمبالغات المـــرعبة حـــول الهدم والتلوث الذي احدثناه، بواسطة طعم الكسب والـــربح، من اجل هدم وتخريب باقصى سرعة ممكنة اثار عالم كان جميلا. وباننا جميعا سنموت ان عاجلا ام آجلا. وان الخطر قائم منذ البدايات الاولى للحياة بما في ذلك البيئة او المحيط.

للمـــرة الاولى منذ تكونت وتشكلت منظومتنا الشمسية، لدينا القـــدرة بفضل علوم الطبيعة والتكنولوجية والصناعة، ان نفعل شيئا مـــن اجل البيئة وكل العلميين والتقنيين يعملون في هذا الاتجاه. ومع ذلـــك فهـــم مـــتهمون بهدم وتخريب الطبيعة. في هذا الوقت ومنذ ســـنوات، فـــان بحـــيرة "زريخ Zurich" العجيبة وبحيرة "ميتشقان

---

(1) مشروع مارشال: هو المشروع الاقتصادي، لإعادة تعمير أوربا بعد انتهاء الحرب العالمـــية الثانـــية الـــذي وضعه الجنرال جورج مارشال رئيس هيئة أركان الجيش الاميركـــي اثناء الحرب العالمية الثانية ووزير الخارجية الأميركي منذ يناير 1947 والذى اعلنه بنفسه في 5 يونيو 1947.

Michigan" العظيمة والانهار التي تقع عليها "شيكاغو Chicago" قد تم انقاذهـــا مـــن دون تهويل او عراك. ولقد تم حفظ الحياة في هذه الـــبحيرات بفضل تعاون العلم والتكنولوجية والصناعة. انها المؤسسة الاولى مـــن هـــذا النوع في تاريخ نظامنا الشمسي وهذا منذ ظهور الحياة.

العالم ليس من السهل تسييره. فكل نوع من انواع الحياة وكل صنف من اصناف النباتات وكل نوع من انواع البكتيريات تؤثر على المحيط والبيئة بانواع اخرى. وتاثيرنا نحن قد يكون الاكبر من نوعه، ولكـــن فيروسا جديدا ووباء جديدا ووباء بكتيريا جديدة، يمكن ان يسحقنا في سنوات او اعوام معدودة.

لـــيس من السهل الاحتفاظ بمراقبة الطبيعة. والديمقراطية ليست هـــي ايضا بالشيء الهين. وكما اشرت الى ذلك، فان تشرشل الذي قـــال بان الديمقراطية هي اسوأ اشكال الحكم باستثناء جميع اشكال الحكم. ولكن ما لم يقله شرشل بشكل واضح هو ما اريد ان اضيفه وهـــو: بالنسبة للحكومات الديمقراطية هي النظام الاقل راحة، لان الحكـــومات مهددة باستمرار بالاقالة. وعليها ان تقدم الحساب لكم ولي. فـــنحن لجنة الحكم او القضاة، ولكننا قد نتعرض للخطر وذلك عندما نصاب بالافتتان والغواية. انه ما كان يسميه هيغل "Hegel"[1] بـــــ "روح العصر" ويشكل خطرا دائما، الا وهو: الايديولوجيات الجديدة او تلك الايديولوجيات التي تظهر على شكل "موضة Mode"، والـــتي هـــي دائما غبية بلا حد، وتعتبر دائما الخاطيء صحيحا حتى عندما يكون الحقيقي بديهي، كل هذا يجعل لجنة الحكم او الحكام

(1) جورج وهلم هيغل: (1770 - 1831)فيلسوف الماني، مؤسس الفلسفة المثالية في العصر الحديث، من اهم اعماله: فينومينولوجيا الروح.

او القـــضاة او اعـــضاء لجـــنة الحكم الذين هم نحن، في حالة من الافتتان.

لقـــد تعلـــم هتلر، من اساتذة متحمسين لكل مايؤمنون به الا وهـــو: ان العـــالم يسير من طرف الروح الالمانية. وكان هتلر يؤمن بهـــذا، مثله مثل كثير من الشباب من مختلف الطبقات الفقيرة، هؤلاء الملايـــين من الشباب الشجعان والذين هم وخلال الحربين الالمانيتين، ماتوا من اجل الهيمنة على اوربا. وهنالك شباب آخر فقير اعدادهم اكثـــر عددا واكثر شجاعة قد دخلوا معهم في الموت. ولكن هؤلاء الاعـــداء يكافحـــون بشجاعة من اجل الحرية والسلم، في حين ان الشباب الالماني من اجل عظمة وتفوق المانيا، من اجل الامبراطور من اجل الرب الاعظم للحرب من اجل "الفوهرر Führer".

الـــيوم بامكاننا بل ومن واجبنا ان ننظر الى الحقيقة كما هي. الايديولوجـــية الالمانـــية كانت وهما، كما بينها احد اكبر المؤرخين البارزين الالمان فريتز فيشر "Fritz Fischer"[1]. لنكن اكثر وضوحا: لقـــد كانـــت اكذوبة. هذه الايديولوجيات الغربية على الرغم من سخريتها وسخفها، وعلى الرغم من تواترها وتكرارها الكاذب، الا انها كاذبة. فالغرب كافح من اجل السلام ولقد حققه في اوربا، هذه المـــنطقة الـــتي كانـــت دائما مسرحا للحروب القاسية. ولقد تحقق السلام، تقريبا في كل مكان كان فيه للغرب تأثير.

ولكن المثقفين غير المسؤولين، لم يستطيعوا ان يروا الا الشر في عالمنا الغربي. لذا اسسوا الديانة الجديدة التي تعلّم، ان العالم ظالم وانه

(1) فريتز فيشر: (1908 – 1999)، مؤرخ الماني، اهتم بتاريخ النازية والحرب العالمية الاولى، مـــن أهم اعماله: اهداف الحرب العالمية الالمانية الامبراطورية (1914 – 1918).

محكوم بالخسارة وآيل الى الضياع. لقد بدؤوا يعلموننا ذلك بكتاب اوزوالد شبنجلر "Oswald Spengler"[(1)]، في كتابه "انحطاط الغرب الغـــرب". لان هـــؤلاء المـــثقفين يريدون ان تكون لهم صفة الجدية والابـــداع، وان يـــستطيعوا قـــول اشياء مخالفة ومعارضة ومناقضة ومـــضادة للبديهـــيات. ولقـــد نجحـــوا في التعتيم ليس فقط على البديهيات، بل كذلك على الحقيقة الموضوعية.

ولكـــنني لا اريد ان اقوم بمحاسبة واسعة بوصفنا مثقفين. وانما اريد ان ادعوهم الى الاعتراف بسؤولياتهم تجاه الانسانية والحقيقة. ان حريتنا تسمح لنا بقول كل شيء. حريتنا تسمح لنا حتى بقذف العالم الحر، وبتصويره على انه عالم فاسد وقبيح وسيء. ان هذا من حقهم، ولكن هذه ليست الحقيقة، وانه لأمر لا اخلاقي ان نبث الاكاذيب، حـــتى عندما يكون لنا الحق في ذلك. انه ليس فقط لا اخلاقي ولكن غـــير مسؤول ان نضع في خطر، التوجهات الكبرى[(2)] التي رسمها لنا تـــشرشل وروزفلت، بطلا الحرب ومشروع مارشال الذي حققوه، وان لاننـــتقص من قيمتهما وان نقدم الطيب على انه خبيث والجيد على انه سيء.

اريـــد ان اذكـــركم الـــيوم بان الروس بدؤوا يعترفون بعالمنا وبسلمنا، ويقدرون ان سلما موسعا بشكل معتبر ليس مستحيلا ولا يتوبيا او خيال. انه من واجبنا ان نجند كل طاقاتنا، وننتهي من تعطيل هذه الامكانية من خلال المغالطة.

---

(1) اوزوالـــد شـــبنجلر: (1880 – 1936) مفكر الماني اهتم بفلسفة التاريخ واشتهر بكتابه: انحطاط الغرب.

(2) فـــضلنا الحديث عن التوجهات الكبرى بدلا من الأقدار الكبرى المنصوص عليها لاننا نعتقد ان السياسات خطط وتوجهات وليست اقدارا.

وفي الاخـــير، نحـــن في السماء، في السماء الاولى بطبيعة الحال ولسنا في السماء السابعة. وجنتنا جد متطورة ومكتملة، ويجب علينا ان لانحط من قيمتها او نقلل من سمعتها وان نفتري على عالمنا الذي هـــو احـــسن العوالم التي وجدت، وخاصة في اوروبا. والحقيقة اننا مستعدون للاصلاحات القادم، وفي الولايات المتحدة الامريكية اكثر من أي مكان آخر.

نحن رجال ذوي الارادات الطيبة المشبعة بالتفاني وانكار الذات والتـــضحية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فان جنودنا قد قدموا الدليل والشهادة. ان الشروط الاساسية متوفرة لاقامة السلم العالمي. الا ان هـــنالك شرط اساسي لازم وهو ان الروس يجب ان يتعاونوا معنا. واذا ما فعلوا، فانه من الممكن ان نحقق حلم شيرشل وروزفلت ليس فقط في اوربا ولكن في العالم اجمع.

انـــه وللمـــرة الاولى منذ الحرب العالمية الثانية، يبدو ان الروس مـــستعدون للـــتعاون! فـــ "سخاروف Sakharov" المعتزل الكبير والـــشجاع، قـــال لا يجب ان نعول او نتكل او نثق في الديكتاتور غورباتشوف "Gorbatchev" القوي جدا. كما قال ايضا ان الاتحاد السوفياتي يمكن ان يكون في حالة تفكك. الا اننا لا نأمل ذلك، لانها ســـتؤدي الى معاناة لاحد لها وستؤدي الى اخطار كبيرة على السلم. ومن الممكن ان تؤدي الى الى ديكتاتورية عسكرية، ديكتاوتورية اكبر قـــوة عـــسكرية (...) برية وبحرية وجوية لم يعرف مثيلها، وهو ما يلغي كل امل في السلام.

ان جورج صورص "George Soros" الذي يعرف روسيا جيدا، وان كـــان اقل من سخاروف، حلل كل هذه الاخطار في مقال مهم نـــشره في مجلة "New York Review of Books" حيث يعتقد ان

روســيا تبحث فعلا عن التعاون مع الغرب. الروس يعرفون ان الجنة والجحيم توجد عندنا.

وحــتى يكون هذا التعاون ممكنا، يجب ان نكون على وعي الى اين نحن وصلنا، وما الذي يمكن للحرية ان تسمح به كما يبين ذلك نموذجــنا او مثالنا. ثم بعد ذلك نستطيع، ان نطلب كيف وصلنا وان نعــرض مــساعداتنا لروسيا، اذا كانت مستعدة لتفكيك سلاحها. ولكن علينا ان نتخذ جميع الاحتياطات الضرورية.

هذه الامكانيات المعروضة علينا اليوم، الها تطالبنا، نحن المثقفين، ان نــرى اخيرا الحقيقة الموضوعية ونتوقف عن خلط الجنة بالجحيم، كما كنا نفعل في الماضي.

يجب ان نعرف باننا لانعرف شيئا – او تقريبا في الغالب لاشيء – وان غورباتشوف في نفس الوضعية التي نحن فيها. من اجل ان نقترب مــن السلم ولو بخطوة يجب ان نتخلص من الايديولوجيات، وخاصة تلك المتعلقة بنــزع السلاح من جانب واحد، فهي خطيرة جدا على الــسلم. يجــب ان نتحــسس الارضية بحذر مثلما تفعل "السرافات Chenilles"[1]. وان نــبحث علــى الحقيقة بكل تواضع. يجب ان نتوقف عن لعب دور الانبياء والعارفين بكل شيء. مما يعني انه يجب علينا ان نتغير.

---

(1) نــوع من انواع الدود وهي دودة الفراش منذ خروجها من البيضة الى ان تتحول الى طاردة.

هذا الكتاب

لا جدال في أن الفلسفة عالمية وإنسانية بطبيعتها وخلاصة للعقل والجهد البشري، ليس لها من سلطة غير سلطة العقل والبرهان، فكل ماهو عقلي هو فلسفي وإنساني وعالمي ومحلي في الوقت نفسه، لأن الفلسفة تقول بالمظهر والماهية، بالشكل والمحتوى، بالعقل وتمظهراته. ولما كانت كذلك فإنها لا تؤمن بالحدود والحواجز والخصوصيات، لأنها بحث في الحقيقة ونشدان للمعنى وتأسيس للتواصل والحوار واللقاء بين الحضارات والأمم، مهما اختلفت أديانها وعقائدها ونظمها ونحلها ومللها وفرقها ولغاتها.

من هنا سعت الفلسفة قديما وحديثا للتغلب على عقبة اللغة من خلال الترجمة، من مختلف لغات الأمم، وكانت بذلك تجسيدا لنزعة إنسانية مبكرة، ولعل في فلاسفتنا القدماء خير مثال على ذلك، فلقد استعانوا على عقبة اللغة بمترجمين وشراح من أجل معرفة النصوص الفلسفية، والتعرف على أصناف المناهج والطرق المؤدية إلى الحقيقة، لأن المعرفة الفلسفية كما قلنا معرفة عالمية-كونية تقوم بتعميم التجربة الإنسانية ورفعها إلى مقام المفهوم والمقولة، بحيث تنطبق على كل الأجناس البشرية.

من مقدمة الكتاب



منشورات الاختلاف
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
البريد الإلكتروني:
editions.elikhtilef@gmail.com

